

الفصل السادس

بارزان وسلالة الشيوخ

لقد جرى وضع هذا الفصل بمبْحِثِه في نهاية الكتاب بشكل متعمد. وقطعا فأن لذلك اسبابه. ان صلة هذا الفصل بدراسة جذور العقائد الدينية ليست قوية وقد خصص بشكل رئيسي لتوضيح جوانب مكملة لتحليل البنيات الدينية وتكوين انطباع عام عن القرية التي ستصبح العاصمة الدينية للمشيخة.

وكما هو معروف، فأن البارزانيين لا يشكلون قبيلة بمعنى الكلمة، وهم بالاصل اتحاد قبلي ظهر بعد انفصالهم عن قبيلة زيبار، متخذين من التباين في العقيدة مبررا للانفصال. بهذا المعنى، فأن بارزان اعطت اسمها على مستويين، قبلي وديني، لجماعة منشقة عن قبيلة زيبار. واستنادا على ذلك، فأنه من الناحية القبلية، صار كل الزيباريين الذين انشقوا عن سلطة الارستقراطية الزراعية واعترفوا، من الناحية الدينية، بسلطة المشيخة البارزانية يعرفون بالبارزانيين. وفي التحليل النهائي نفهم من هذا التحول ان جزءا من الزيباريين لم يعودوا ينظرون بأحترام الى سلطة ارستقراطيتهم الزراعية وانهم تمردوا عليها بتحريض من شيوخ تكية بارزان وقيادتهم. ومن حيث الجوهر، ترتدي العملية برمتها طابع استبدال سلطة بسلطة، اي استبدال سلطة الارستقراطية الزراعية بالسلطة الدينية لمشيخة بارزان التي استمرت من اواسط القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٦٩.

ولأن هذا الجزء من التاريخ لم يسلط عليه ضوء قوي، ظن البعض ان بارزان قائمة كقبيلة منذ الالف السنين. وبسبب هذا الفهم الخاطيء جرى تقييم الاصول اللغوية والتاريخية لكلمة بارزان بشكل غير صحيح. ونظراً لأن بارزان هي العاصمة الدينية للبارزانيين ومنها جرى التخطيط لنشر العقائد

الدينية، فأن محاولة التنقيب عن تاريخها، قبل ان تقام فيها التكية، يكتسب اهمية كبيرة ويساهم في توفير جو افضل لفهم الظروف التي ظهرت وتطورت فيها البنيات الايديولوجية للعقائد البارزانية ويصحح في الوقت ذاته جملة من التصورات الناتجة، بلا شك، عن سطحية الخوض في التفاصيل التاريخية. ولما كانت سلالة الشيوخ البارزانيين هي العتلة التي حولت العقائد من مجرد افكار مثيرة للامال الى قوة مادية، فمن الصعب ان يكتمل البحث دون التمعن في تاريخ هذه السلالة ومحاولة استكشاف اصولها ومعرفة الظروف التي تمكنت فيها من استثمار قوة خلاياها المنظمة خلال مواجهتها الارستقراطية الزراعية. هنا يتداخل تحليل اصول السلالة البارزانية مع تاريخ امارة العمادية التي حكمت المنطقة حتى عام ١٨٤٢ ويتداخل كذلك مع خصوصيات المنطقة التي تظهر في التاريخ كمنطقة جذبت اليها الكثير من العقائد وتحولت الى مركز نشاط للعديد من الدراويش والمتصوفة الذين انشأوا خلاياهم فيها واغنوا تراثها العقائدي وتركوا آثارهم على حياتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، تلك الاثار التي لا تزال نحس بها حتى اليوم.

المبحث الاول

بارزان والبارزانيون

في اقصى الشمال الغربي لمحافظة اربيل، على مقربة من الحدود مع كل من ايران وتركيا، تقع بارزان. ان تاريخها يغلب عليه الغموض. وقبل ان يقيم فيها الشيخ تاج الدين تكيته في اواخر القرن الثامن عشر لم تكن اكثر من كونها احدى قرى الزيباريين.

ليس في تاريخ بارزان شيء مميز وقد ظلت طوال حقبة طويلة على هامش الاحداث. والبارزانيون الحاليون لا يعرفون شيئاً عن البارزانيين الاوائل وليست لديهم اية فكرة عن الفترة التي بنيت فيها القرية. اعطت بارزان اسمها للبارزانيين وعقيدتهم. ويعني ذلك ان تحليل تاريخ بارزان واسمها من حيث صلته بالعقائد التي روجت لها اسرة الشيخ تاج الدين لا يعطي اية عوامل تساعد على فهم جوانب مهمة من العقائد البارزانية. وعلى اية حال، فان الارتباط بين بارزان وعقائدها الدينية يبدأ ببناء الشيخ تاج الدين تكيته فيها. يفضي هذا الى ضرورة التفريق بين البارزانيين الاوائل والبارزانيين اللاحقين. ان مصطلح البارزانيين الاوائل يشمل كل الذين سكنوا بارزان، سواء كانوا مسلمين او غير مسلمين، قبل ظهور الشيخ تاج الدين، وهؤلاء كانوا يهودا ومسيحيين ومسلمين. وقطعا لم يكن مسلموها يتبعون التعاليم التي بشرت بها لاحقا تكية الشيخ تاج الدين واحفاده.

هذه النبذة تبدو ضرورية جدا لتوضيح انه على وجه الاطلاق لا صلة بين تسمية بارزان والعقائد التي انتشرت منها وحملت اسمها. وتكمن اهمية الانشغال بدراسة التسمية في انه من المقدر له ان يكشف جوانب خافية من التاريخ القديم. وفي تحليل تسمية بارزان ثمة خلط لأن اكثر الذين حاولوا ايجاد معنى للأسم، وبينهم من القدامى معروف جياووك ومن المحدثين احمد شريفى ومحمد علي

سلطاني، اعتقدوا خطأً ان البارزانيين يشكلون عشيرة بحد ذاتها وساوا بين منصب رئيس الطائفة الدينية ومنصب رئيس القبيلة، في حين ان البارزانيين ليسوا سوى ذلك الجزء المنشق عن قبيلة زيبار الذي رفض سلطة ارستقراطيتها الاقطاعية وخضع لسلطة المشيخة. ان هذا يعني ان العملية برمتها هي استبدال سلطة بسلطة. واللافت للنظر في هذه العملية انها جرت بشكل ارادي، فهي بهذا المفهوم عملية رفض لخضوع قسري وقبول لخضوع ارادي. وعلى هذا فأنا اي بحث عن اصول البارزانيين لا يمكن ان يكون تجريديا، بل يكون من خلال دراسة اصول قبيلة زيبار التي انشقوا عنها.

هكذا فأنا دراسة اصول البارزانيين كجماعة مستقلة عن الزيباريين لن تسفر الا عن نتائج خاطئة. ولا ريب ان التقييمات الخاطئة تنتج نظريات خاطئة. وانطلاقا من هذا، فأنا جياووك عملا بالطريقة التي اعتبرها صائبة، وضع نظرية تقوم على اربعة احتمالات لأصل تسمية بارزان، اعتبر في واحدة منها انها ربما تكون منسوبة الى قبيلة برازي وانطلق في احتمال اخر من الظن في انها ربما تكون اسم الجد الاعلى للبارزانيين واعتبر انه يعطي معنى "حامل الحق".^١ على نفس الشاكلة، اقام شريفي نظريته على اساس ان البارزانيين الحاليين هم اسلاف اسرة ظهرت قبل العصر الساساني في اقليم كرخا بيت سلوخ الذي يرادف اقليم كركوك الحالي ورأى انه ربما يكون الساسانيون قد ابعدها تلك الاسرة الى جنوب ايران. وبرر وجودهم في مناطقهم الحالية شمال نهر الزاب الكبير بأنهم على الأرجح استغلوا سقوط الساسانيين في القرن السابع الميلادي على يد العرب المسلمين وعادوا الى جبال بارزان.^٢

هذه النظرية تظهر مرة اخرى برداء جديد عند محمد علي سلطاني. اعتبر سلطاني ان بارزان تصحيف لكلمة (بادجان) وان البارزانيين قوم سكنوا جبال بارز في اقليم كرمان بأيران. وبسبب ذلك فإنه استنتج ان البارزانيين اعطوا اسمهم لجبال بارز او انهم ربما يكونوا اخذوا اسمهم منها. وعلى اية حال، يتجنب سلطاني

^١ معروف جياووك، مأساة بارزان المظلومة، المصدر السابق، ص ٤٦.

^٢ احمد شريفي، برزان وبارزان، مجله مهاباد، شماره ١٦، سال دوم، تير ١٣٨١، صص ٥٠-٥١.

الخوض في تفاصيل هذا الجانب من المسألة ويذهب الى ان الاصطخري قد ذكر ان الجماعة التي عاشت في جبال بارز ظلت محتفظة بدينها القديم وانها لم تتحول الى الاسلام الا في العصر العباسي وانها كانت مؤلفة من قبائل غير مستقرة وادي ذلك الى تبعثرها في اصقاع شتى. وفي تقديره ان تداول اسمهم بشكل بارزان او برزين في مناطق متباعدة يدل على انتشارهم الافقي على مساحة واسعة من الارض^٣. ينتج عن هذا ان تعريف البارزانيين كمجموعة قبلية خاصة يؤدي في النهاية الى تصوير التاريخ بشكل مغاير للحقيقة.

وفي مطلق الاحوال، لا يبدو تكرر ظهور تسمية بارزان في تاريخ الثلاثة الاف سنة الماضية بصيغ مختلفة امرا غير طبيعي. ان اسبابا عديدة تكمن وراء تكرر ظهور هذا الاسم في حقب مختلفة وفي مناطق متباعدة منها تأخر استقرار القبائل الكردية، ما يعني ان التاريخ الكردي في جوهره هو تاريخ لقبائل غير مستقرة وان الاستيطان شكل عملية طويلة الامد استمرت طوال الفي عام تقريبا. والظاهرة التي يتميز بها تاريخ الاكراد هو استمرار حركة تنقل القبائل، الامر الذي اتاح للقبائل ان تنقسم الى فروع في مناطق متباعدة او يتغير مذهبها الديني او نطقها او تندمج في حقب معينة في مجتمعات فارسية او تركية. ان الظاهرة الاكثر جلبا للانتباه في تاريخ الاكراد الاجتماعي هو ان اية قبيلة تعرف في الغالب بأكثر من اسم حسب مقتضيات المرحلة التاريخية وظروفها، واحيانا استنادا الى ظهور زعماء اقوياء فيها اعطوا للقبيلة او احد افخاذها اسمهم.

قطعا ليس هنالك مجال للشك في عراقية اسم بارزان. ويدل على ذلك انه في النص الاسطوري البهلوي المعروف بنص اعمال اردشير بابكان، مؤسس السلالة الساسانية، والذي يعود تاريخه الى الفترة الواقعة بين ٢٠٨-٢١٠ ميلادية، يرد اسم بارزان ضمن المجهود الحربي لأردشير بابكان. لقد جهز اردشير جيشاً كبيراً لمحاربة البارزان في اقليم كرمان^٤. ولا يوضح النص بعد ذلك ما اذا كان اردشير

^٣ محمد علي سلطاني، اوضاع سياسي اجتماعي تاريخي ايل بارزان، سازمان اسناد وكتابخانه ملي جمهوری اسلامی ایران، تهران، ١٣٨٢، صص ٦-١٢.

^٤ دكتور بهرام فرهوشي، كارنامه اردشير بابكان، چاپ سوم، انتشارات دانشگاه تهران، تهران، ١٣٨٢، ص ٨٧.

قد اشتبك معهم ام لا. ولا يبدو معنى بارزان هنا واضحا بما فيه الكفاية لكنه في الغالب الاعم يشير الى قبيلة حملت ذلك الاسم او يشير الى اسم زعيم قبلي لم يخضع لسلطة اردشير. والى جانب بارزان المذكور في النص، ثمة كلمات تلفظ بشكل قريب من التلفظ بأسم بارزان. ففي منامه يرى بابك الذي يعمل ساسان راعيا لديه، ان النار المقدسة في بيوتات النار المقدسة المشهورة، واحداها آذر برزين ميهر تضيء في بيت ساسان. وحتى يحل لغز هذه الرؤيا استدعى بابك عددا من المنجمين اخبروه ان هذا الرجل او رجلا من صلبه سيصبح ملكا ويقيم سلالة جديدة في البلاد. حتى ذلك الوقت لم يكن احد يعرف، ولا حتى ساسان نفسه، ان الرجل الذي رأى بابك في منامه ان النار المقدسة تضيء بيته، هو من صلب داريوش، اخر ملوك الهخامانش الايرانيين الذي خسر الحرب ضد الاسكندر المقدوني في عام ٣٣١ قبل الميلاد^٥. وبحسب التقسيم الطبقي في ايران توجد صلة بين بيوتات النار والطبقات الاجتماعية، اذ خصصت آذر فرانباغ لطبقة رجال الدين، وخصصت آذر غوشساب لطبقة رجال الحرب وخصصت آذر برزين ميهر لطبقة الفلاحين^٦. ولم تكن هذه البيوتات الثلاث متجاورة، بل ان كل واحدة منها كانت في مكان مختلف. وبحسب ذلك نجد ان معبد النار المعروف بأسم آذر برزين ميهر كان مقاما في جبال ريواند في شمال غرب مدينة نيسابور^٧.

وفي الاحداث اللاحقة يتعرف اردشير على اخوين في احدي القرى يدعى احدهما برزك والاخر برز آتور^٨. ولأن البهلوية تقرأ احيانا بأشكال مختلفة، فأن بعض الاسماء الواردة في النص تقرأ بأشكال متباينة مثلما يحدث مع اسم بورازاك. فضمن الانجازات التي يروج لها النص، يشار الى ان اردشير بعد ان يحقق النصر على الملك اردوان، اخر ملوك السلالة الاشكانية، يشق الجبال في اقليم

^٥ نفس المصدر، ص ٥-٩.

^٦ تارتور كريستينسين، ثيراني سردهمى ساسانيه كان، سهرچاوهى پيشو، ل ٢٠٧.

^٧ نفس المصدر، ص ٢٠٩.

^٨ دكتور بهرام فرهوشي، كارنامه اردشير بابكان، ص ٦٩. في النسخة الكردية التي ترجمها شاسوار خ. هرشمي نقلا عن النص الذي اعده قاسم هاشمي نزاد تقرأ برزك وبرز آتور بشكل بورز وبورز آزر. انظر: شاسوار خ. هرشمي، كارنامهى ثمودهشيري بابكان، دهزگاي چاپو پهخشى سردهم، سليمانى، ٢٠٠٠، ل ٥١.

فارس لأقامة ترعة حملت اسم ترعة بورازاك. وفي بعض القراءات، كما في النص الذي ترجمه الدكتور بهرام فراوشي، تقرأ بورازاك بصيغة راوك^٩، وهو ما يبعدها عن مقصدنا.

توضح هذه الاسماء انه ثمة تباين في معانيها. ففي تسمية بيوتات النار يشير اسم "برزين" الداخل في صياغة آذر برزين ميهر الى موقع يمتاز بالقداسة والتبجيل في الديانة الزرادشتية، فيما يشير اسم بارزان على الاغلب الى قبيلة استوطنت اقليم كرمان او يشير الى اسم زعيم تلك القبيلة، في حين ان "بورازاك" او "راوك" يشير الى اسم ترعة او نهر في اقليم فارس. اما كلمتا "برزك" البسيطة او "برز آتور" المركبة فقد استخدمتا كأسم على للرجال. مهما يكن، يعيننا نص اعمال اردشير بابكان الاسطوري على ادراك ان الاسم بصيغة بارزان او برزين او بصيغة اشكال قريبة من هذين الصيغتين قد شاع على نطاق واسع بين الآريين في اقاليم فارس وأذربيجان وكردستان.

وهناك صيغة اخرى للاسم تظهر بشكل "بارز". ويسود بين الكتاب القوميين الاكراد نظرية قوامها ان اردشير بابكان الذي اطاح بالدولة الاشكانية واقام سلالة جديدة عرفت بالسلالة الساسانية يعود باصوله الى الاكراد وليس الى داريوش، اخر ملوك الهخامنشيين. ويدعم نظريتهم ان الطبري الذي فيما يبدو قد استند على مصادر تاريخية تعود الى الحقبة الساسانية، يتحدث عن مكاتبات جرت بين اردشير المتمرد والملك اردوان الخامس يسخر فيها اردوان من اردشير ويعيره بأصله قائلاً انه "الكردي المربي في خيام الاكراد"^{١٠}. ولأن الطبري يذكر ذلك بشكل تجريدي، فقد اعتبر الكتاب القوميون الكرد ذلك دلالة على صدق روايته. ويعلق شاسوار خ. هرشمي الذي ترجم نص اردشير بابكان من الفارسية الى الكردية، على ذلك بقوله "لم يحقق الطبري في تلك الرواية لأنه في عصره لم يكن هناك من يشك في الاصل الكردي لأردشير"^{١١}.

^٩ دكتور بهرام فرهوشي، كارنامه اردشير بابكان، ص ٥١.

^{١٠} الطبري، تاريخ الامم والملوك، المجلد الاول، الطبعة الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥، ص ٣٩٠.

^{١١} شاسوار خ. هرشمي، كارنامه نمردهشيري بابكان، سرجاوهي پيشو، ل ٢٣.

ولكي يقدموا دليلاً أقوى على صحة نظريتهم، اعتبر أولئك الكتاب أن اقليما فارس وكرمان اللذان لا يشكلان جزءاً من المنطقة الكردية الراهنة، كانا في تلك الحقبة يضمنان مجموعة من القبائل الكردية المتحلة التي استقرت فيها في ظروف غير معروفة. ويكشف التمعن في سجل الانشطة الحربية للملك نوشيروان الذي حكم في الفترة ما بين عامي ٥٣١-٥٧٩ ميلادية، انه قاتل قبيلة بارز وانتصر عليها وانه اقتلعها من مواطنها الاصلية وقام بأعادة توطينها في اقليم كرمان^{١٢}. وفي الحقيقة فإن العرب سبقوا الكتاب القوميون الاكراد في اعتبار البارز من الاكراد. وقوام هذه النظرية جلي في تحليلات كل من ابن كثير الدمشقي وجلال الدين السيوطي الذين تعطي كتاباتهم الانطباع بأنهما يساويان بلا ادنى ريب بين البارز والاكرد. وكلاهما في سعيهما لتفسير ما غمض من آيات القرآن، ينقلان عن ابي هريرة ان المراد بالآية "ستدعون الى قوم اولي بأس شديد" هم البارز، الذين هم اكراد^{١٣}.

ان تكرر الاشكال القريبة من لفظة بارزان في حقب مختلفة لا يوفر المادة الضرورية لتبرير الذهاب ابعد مما يعنيه ذلك من الناحية التاريخية. ان اكثر الاسماء قريبا من بارزان هو برزين. وهذا الاسم يبدو شائعا على نطاق واسع بين الفرس والاكرد قبل ظهور الاسلام وكذلك في العصر الوسيط. وتعطينا الشاهنامه، وهي اثر ادبي مكتوب باللغة الفارسية، مادة تصلح لتكوين انطباع عن مدى شيوع الاسم. ففي حدود عام ٣٤٦ هجرية كلف امير طوس ابو منصور محمد بن عبدالرزاق وزيره ابو منصور معمري العمل على توفير متطلبات كتابة تاريخ الملوك الايرانيين القدامى وملاحمهم. وحرص الوزير على ان يكون العمل في غاية الاتقان فجمع مؤرخين وعلماء من هرات وسيستان ونيسابور ومن طوس نفسها وقدم الفريق المشكل تاريخ ايران وملاحمها القديمة نثراً. وضم الفريق عضوا يدعى شادان بن برزين من طوس^{١٤}. في هذه الشاهنامه، التي لم يصلنا منها سوى

^{١٢} احمد شريفى، برزان و بارزان، ص ٥١

^{١٣} الدكتور فرست مرعي، كردستان في القرن السابع الميلادي، مركز كردستان للدراسات الاستراتيجية، السليمانية، ٢٠٠٦، ص ٢٣٨.

^{١٤} دكتور محمد معين، فرهنگ فارسي، جلد پنجم (اعلام)، ص ٨٨٢.

المقدمة، لا يرتبط اسم برزين بأية قبيلة وهو يتكرر بكثرة كأسم علم للرجال ويمكن ان نلاحظ ان سبعة من شخصيات الشاهنامة النثرية على اقل تقدير يدخل برزين في تركيبه اسمائها.

في هذا الصدد، تشكل شاهنامة الفردوسي امتدادا للشاهنامات التي سبقتها. جلي ان كل الشاهنامات اجمعت على الاحتفاظ بأصالة الثقافة القومية. وللوصول الى هذا الهدف سعى الفردوسي الى سرد تاريخ ايران قبل الاسلام وتبجيل ملوك فارس القدامى بشكل يضارع جهد هوميروس لتعظيم تاريخ اليونان في الالياذة. هكذا، فإنه في اطار ستين الف بيت شعر دون الفردوسي تاريخ العصور الغابرة مازجا الاسطورة بالتاريخ والسوسولوجيا، عابرا المراحل الثلاث بخفة: المرحلة الاسطورية التي تبدأ من كيومرث وتنتهي بظهور فريدون، والمرحلة البطولية التي تبدأ بانتفاضة كاوة وتنتهي بمقتل رستم، والمرحلة التاريخية التي تبدأ من اواخر عهد الكيانيين^{١٥}. وفي هذه الشاهنامة يرد اسم برزين كأسم لأسرة عظيمها فرهاد شاركت كيخسرو حربه ضد الطورانين^{١٦}.

وبين اكراد القسم الغربي لاقليم الجبال، تجلب المصادر التاريخية الانتباه الى وجود قبيلة بأسم برزيكان او برزه كان. وعلى الرغم من ان ابو شجاع الروذراوري في كتابه "ذيل تجارب الامم" يرسم صورة قائمة عن أنشطة البرزيكان ويصفهم بالعدوانيين وقطاع الطرق^{١٧}، فإن حدود الامارة التي اقاموها والتي كانت تمتد من همدان حتى شمال خوزستان ومن الكوت حتى الزاب الكبير^{١٨} تفصح عن قدرتهم على تأسيس نظام اداري متطور. ويكشف تنامي النفوذ السياسي للبرزيكان في المنطقة عن مواهب مؤسسيها الذين حولوا قبيلتهم من مجرد قبيلة عادية الى كيان سياسي معتبر.

^{١٥} نفس المصدر ونفس الصفحة.

^{١٦} محمد على سلطاني، اوضاع سياسى اجتماعى تاريخى ايل بارزان، ص ٤.

^{١٧} ظهير الدين ابو شجاع الروذراوري، ذيل تجارب الامم، الجزء الثالث، مطبعة شركة التمدن الصناعية، القاهرة، ١٩١٦، ص ٢٨٨.

^{١٨} محمد جميل بندي الروزيباني، مدن كردية قديمة، المصدر السابق، ص ١٢٠.

هذه القبيلة التي حكمت ثمانين عاما واتخذت من دينور عاصمة لها كانت مؤلفة من فرعين متنافسين هما عيشاني وبرزيني. والى الفرع الاخير ينتمي مؤسس الامارة حسنويه بن الحسين البرزيكاني^{١٩}. ولا تتوفر في المصادر اية معلومات عن الفرع البرزيني. وعلى اية حال، لا يبدو التصارع بين زعماء القبيلة الواحدة امرا غريبا في تلك الحقبة المليئة بالنزاعات والحروب. ومع ان البرزيكاني تحالفوا مرات كثيرة مع البويهيين، فأن امارتهم سقطت على ايدي البويهيين انفسهم في عام ١٠١٦ ميلادية. وبأنهيار الامارة اختفى اسم القبيلة من التاريخ. ان تكرر اسم بارزان او برزني في التاريخ، بالشكل الذي رأيناه، يسبغ على الاسم صفة القبول الاجتماعي. ان ظهوره في حقب مختلفة وفي اماكن متباعدة يعطي الانطباع باتساع شيوعه بين الآريين، سواء كانوا فرسا او كردا. وبهذا الشأن فأن استخدامه كأسم علم للرجال منذ الحقبة الساسانية حتى نهاية العصر الوسيط يبدو شائعا جدا. وانطلاقا من ذلك فقد تحول في احيان عدة الى اسم لأسر متنفذة وفروع قبائل. وابتداءً من القرن السادس عشر الميلادي نلاحظ ان الاسم اخذ يستخدم للدلالة على البنيات القبلية، كما هو حاصل في برزانلو التي تشكل فرعا من قبيلة زعفرانلو في خراسان^{٢٠}. يكشف الاسم عمق التأثيرات التركيبية في الاسماء الكردية، اذ ان التصاق اللاحقة التركيبية (لو) بالاسم الكردي (برزان) الذي كان على الاغلب اسم زعيم الطائفة، اعطاها اسم برزانلو. ويقترن وجود الاكراد في اقليم خراسان في شرق ايران بجهود الملوك الصفويين لتأمين الحدود الشمالية لخراسان في القرنين السادس عشر والسابع عشر. ونتج عن ذلك انهم قاموا بنقل الاف الاسر من القبائل الكردية الى خراسان مقدرة في بعض المصادر التاريخية بحوالي ٤٥ الف اسرة. وهناك شيد المرهلون مستوطنات جديدة لهم تحولت بالتدريج الى مدن مثل بجنورد وشيروان وزعفرانلو ودارغز^{٢١}.

^{١٩} ابن الاثير، الكامل في التاريخ، الجزء السابع، المصدر السابق، ص ١٢٤.

^{٢٠} احمد شريفى، برزان وبارزان، ص ٥١.

^{٢١} عبدوللا قهردهاغى، راكوزانى كورد لهميژودا، چاپخانهى ناپينك، ستوكهولم، ١٩٩١، ل ٤٠.

تعطي كلمة بارزان في اللغة الكردية معنى العلو. وهذا المعنى يمكن ملاحظته في كلمة برز burz في اللغة الفارسية التي تعطي معاني ارتفاع، سمو، قامته^{٢٢}. ويعطي نفس المعنى اسم جبل البرز elburz الذي تشكل قمة دماوند اعلى قممه في شمال ايران. وهذا الجبل ورد اسمه في النصوص البهلوية بشكل herburz^{٢٣}. ويشيع بين الاكراد استخدام اسم "برزو" كأسم علم للرجال وهو اسم ابن سهراب بن رستم بن زال في الحكايات الفولكلورية الفارسية والكردية. وترد كلمة برز berz في اللغة البهلوية بشكل برز burz^{٢٤} (بضم الباء وسكون الراء).

ان اقتران برزين بالنار في معبد النار أذر برزين ميهر يوفر فرصة لتقديم تصور اخر عن بارزان. وبحسب التقسيم الطبقي القديم خصص الآريون معبد نار أذر برزين ميهر لطبقة المزارعين كما اسلفنا الذكر. وهناك رابطة لغوية بين برزين كبيت للنار وبين مهنة الزراعة لأن كلمة "برز" berz تعطي ايضا معنى الزراعة ومنها ظهرت كلمة برزكر berzger التي تعني المزارع^{٢٥}. يؤكد نفس المعنى قاموس فارسي-كردى صادر في عام ٢٠٠٦ عن جامعة كردستان في سنندج بأيران^{٢٦}.

ان ارتباط برز بالزراعة لافت للنظر. وفي الاقليم الذي تنتمي اليه بارزان يدعى احد السهول بسهل برازكر berazgir. والصلة بين برزكر berzger الفارسية وبرازكر berazgir الكردية واضحة. ومع ان الاهالي يميلون الى ان الاسم يشير الى السهل الذي كان يتم فيه صيد الخنازير البرية، فان ذلك لا ينفي المعنى الاصلي للاسم، فالمنطقة بالاصل عاشت فيها اعداد غفيرة من الخنازير البرية وقد تزايدت اعدادها بعد تحول الاكراد الى الاسلام لأن الاسلام حرم عليهم اكل لحومها وصارت فيما بعد تلحق اضرارا كبيرة بحقول المزارعين، مما استدعى

^{٢٢} دكتور محمد معين، فرهنگ فارسى، جلد اول، ص ٥٠٣.

^{٢٣} دكتور محمد معين، فرهنگ فارسى، جلد پنجم (اعلام)، ص ١٦٩.

^{٢٤} دكتور بهرام فردهوشى، فرهنگ فارسى بهپهلوى، ص ٧٣.

^{٢٥} دكتور محمد معين، فرهنگ فارسى، جلد اول، ص ٥٠٣.

^{٢٦} ماجد مردوخ روحانى، فرهنگ فارسى-كردى، جلد اول، دانشگاه كردستان، سنندج، ١٣٨٥، ص ٣٦١.

التخلص منها. والدليل على غلبة مفهوم الزراعة على مفهوم صيد الخنازير هو ان كل من اللاحقتين ger و gir تعطيان معنيين مختلفين، اذ ان ger في برزكر وكل الكلمات التي تلتصق بها تعطي معنى الحرفة. وانطلاقاً من هذا فإن التصاقها بكلمة برز يعطي الكلمة المركبة الجديدة معنى محترف الزراعة. اما اللاحقة gir فهي جذر لكلمة "كرتن" girtin التي تعني "امسك" وهي بالتصاقها بكلمة "براز" beraz التي تعني الخنزير لا تعطي معنى الامسك بالخننازير لأن المطلوب قتلها وليس الامسك بها.

ويسترعي الانتباه انه بحسب التحليل الذي يقدمه قاموس "برهان قاطع" الفارسي الذي ألفه محمد حسين بن خلف تبريزي في سنة ١٦٥١ فإن برزين ذاتها تعطي معنى "النار" بشكل تجريدي^{٢٧}. هكذا فإنه بأقامة صلة بين المعنى اللغوي للكلمة الذي يعطي معنى العلو والوظيفة الدينية لبرزين كأحدى بيوتات النار، يمكن ان نتصور ان بارزان كانت على الاغلب معبدا زرادشتيا قبل ظهور الاسلام. وفي الادب الشفاهي البارزاني مادة تسمح بتدعيم النظرية التي ترى ان بارزان كانت في الاصل معبدا زرادشتيا. ففي المكان الذي اقام فيه القرويون اول مسجد في بارزان، يقول الادب الشفاهي البارزاني انه كان ثمة معبد قديم. وبحسب ايوب بارزاني فإن القرويين الذي كانوا يحفرون الارض بحثا عن مصدر لأحد الينابيع، اكتشفوا بناءً كان "معبدا في الظاهر"^{٢٨}. وقد حولوه في الحال الى مسجد. هنا يمكن الافتراض، مدعومين بأكتشاف المعبد، ان جبل شيرين الذي يطل على بارزان كان يحتوي على عدد من مواقع النار المقدسة. لكن وجود المعبد لا يدعم وجود بارزان كقرية مأهولة بشكل ميكانيكي لأن اكثر المعابد الزرادشتية كما جرت العادة كانت تقام في مواقع خاصة بعيدا عن القرى. ولأن المحارق كانت تقام في الاماكن المرتفعة، فإن برزين تحتزل في ذاتها معاني العلو ومظاهر القداسة. ومن النافل، القول ان المعبد الزرادشتي في بارزان وفي غيرها من الاماكن قد دمر بالكامل على يد العرب المسلمين.

^{٢٧} محمد حسين بن خلف تبريزي، برهان قاطع، به اهتمام دكتور محمد معين، جلد اول، چاپ پنجم، مؤسسه انتشارات امير كبير، تهران، ١٣٦٢، ص ٢٥٥.

^{٢٨} بي رش، بارزان وحركة الوعي القومي الكردي ١٨٢٦-١٩١٤، ص ٢٧.

ان الاستفاضة في التنقيب عن جذور تسمية بارزان في التاريخ ليس غاية في حد ذاته بل ان المراد منه هو ان يساهم في اكتشاف ماضي القرية. ويبين البحث في المدونات التي ذكرت تاريخ المنطقة وقبائلها ومعالمها الجغرافية وحياتها الاجتماعية خلال حقبة تبدأ من القرن العاشر وتنتهي في بداية القرن الخامس ان بارزان مفقودة ولا ذكر لها على الاطلاق. هكذا، فأننا نلاحظ ان ابن حوقل (المتوفى في ٩٨١) وقد ذكر في "صورة الارض" داسنيا التي تؤلف جزءاً من الاقليم الذي يضم بارزان^{٢٩}، لا يتفوه بأي شيء عن بارزان. وحذا كل من ابن فضل الله العمري والقلقشندي حذوه. فالاول في كتابه "مسالك الابصار في ممالك الامصار" الذي يكتسب اهمية كبيرة لدراسة المنطقة الكردية في القرن الرابع عشر، ذكر مناطق وامارات وزعامات قبلية كثيرة في المنطقة بينها بالاكيان وقبائل محمدي وسندي وبختي وداسني في مناطق دهوك وزاخو وتطرق الى ذكر الحروب القبلية التي تورطت فيها قبائل سوران وزرزاري وقرتاوي وزيبار. وبحسب العمري فأن مناطق شاسعة من الاقليم خلت من سلطة امارة العمادية وان قبائل دوسكي وزيبار وسندي وداسني ودونبولي ادارت مناطقها بنفسها وان المنطقة التي تقع بين الزاب الكبير وعقرة ادارها امراء قبيلة زيبار^{٣٠}. وعلى نفس الشاكلة، لا يرد اي شيء عن بارزان في كتاب القلقشندي "صبح الاعشى" على الرغم من ان الكتاب حافل بذكر اسماء كثيرة مثل بخمة ونيرة ريكان واقليم سوران (الذي يضم رواندوز وديانا) ويحتوي على معلومات عن تورط الزيباريين في حروب قبلية. كما انه في حديثه عن الامارة الزرزارية يتطرق الى ذكر اماكن عدة بينها سهل برازكر، رستاق، اشنة، سيدكان، اكريسان وكيلة شين^{٣١}.

من جانب اخر لا تحقق الاستعانة بالمصادر التي تتناول ذكر تفاصيل غزو تيمورلنك لكردستان خلال العهد الجلائري اية نتيجة، اذ ان ايا منها لا يذكر

^{٢٩} ابن حوقل، صورة الارض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩، ص ٢٦٠.

^{٣٠} ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار في ممالك الامصار، الجزء الثالث، مخطوطة مستنسخة موجودة في مكتبة المجمع العلمي العراقي تحت رقم (٣٠٠-٢٩٠ ج)، صص ١٣١-١٣٤.

^{٣١} القلقشندي، صبح الاعشى في صناعة الانشا، شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين، الجزء الرابع، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧١، صص ٣٧٥-٣٧٨.

بارزان. ان التمعن في مسير الحملات الثلاث التي شنها تيمورلنك في السنوات ١٣٨٦-١٣٨٩ و ١٣٩٢-١٣٩٦ و ١٣٩٩-١٤٠٥ والتي اخترق فيها كردستان لا يحقق اي مراد. ويقتضي هذا التحليل الاقرار بأنه حتى نهاية حكم الاسرة الجلانية المغولية في عام ١٤١٠ وبداية عهد القرة قوينلو لا تذكر المصادر التاريخية اي شيء عن بارزان.

ومن بين كل المصادر يسترعي الانتباه كتاب "شذرات الذهب" لأبي الفلاح عبدالحى بن العماد الحنبلي، المطبوع في ثمانية مجلدات في بيروت في الثلاثينات. يستعرض الحنبلي في كتابه حياة عدد كبير من المشاهير بينهم محمود بن احمد، المشهور بابن برزان. ويرجح ان يكون الحنبلي هو الوحيد الذي ترجم لأبن برزان. وبحسب الحنبلي، ولد ابن برزان في اسكليب بالاناضول وهناك تلقى تربية تقليدية في زمن كان فيه التعلم مقصورا على العلوم الدينية وبعض ملحقاتها، ويبدو انه حقق نجاحا ملحوظا في ذلك. ويدل على ذلك انه اذن له في الافتاء والتدريس. وكما جرت العادة، فإن سنة مولده غير معروفة لكن بحسب ما كتب عنه الحنبلي فإنه يكون قد توفي في عام ٩٨٣ هجرية وبذلك يكون قد عاش في منتصف القرن السادس عشر الميلادي^{٣٢}.

وليس صعبا اعتبار ورود اسم "ابن برزان" في الكتاب اول اشارة واضحة الى وجود بارزان في القرن السادس عشر الميلادي. ومع ذلك فإنه يصح ان ننظر الى ذلك بحذر لأن اللقب لا يؤكد بشكل ميكانيكي نسبه الى قرية بارزان المعنية. هذا الشك يمكن الاستدلال عليه في ما كتبه عنه العلامة محمد امين زكي بك في كتابه عن مشاهير الاكراد، اذ انه رغم اشارته الى الاحتمال الظاهري لوجود صلة بين اللقب وبارزان، فإنه ترك نورا من الشك حول ذلك^{٣٣}. ولأنه ليس امامنا خيار آخر، فإنه لا مناص من اعتبار كتاب الحنبلي يحتوي على اول اشارة واضحة الى وجود قرية بأسم بارزان في بداية القرن السادس عشر الميلادي.

^{٣٢} ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، الجزء الثامن، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص ٤٠١.

^{٣٣} محمد امين زكي، مشاهير الكرد وكردستان، الجزء الثاني، مؤسسة زين لاهياء التراث الوثائقي والصحفي الكردي، السليمانية، ٢٠٠٥، ص ٣٩٥.

وعلى الرغم من ذلك فأنا لا نجد ذكرا لبارزان في كتاب "شرفنامه" الذي كتبه الامير شرف خان. انتهى الامير شرف خان بن شمس الدين امير بدليس الذي زعمت اسرته ان نسبها يعود الى ملوك الساسانيين، من تأليف كتابه ذائع الصيت "شرفنامه" في عام ١٥٩٦. ومع انه خصص فصلا كاملا منه لقبائل المنطقة، فإنه لم يتطرق بأي شكل من الاشكال الى بارزان. تحتوي شرفنامه على تاريخ القبائل والاسر الكردية الحاكمة حتى عام ١٥٩٦ وعنها كتب الباحث الروسي فلاديمير ويليامينوف زرنوف يقول "انها تحتوي على تفاصيل لم تذكر في اي مكان اخر مثل السنن والاداب والمراسيم والروايات التاريخية التي سمعها المؤلف من فم الاكراد"^{٣٤}. وتضمن الفصل المخصص لقبائل العمادية اسهابا في التطرق الى القبائل الاساسية مثل مزوري وزيبار وريكاني. وحتى يتوخى الدقة في حديثه عن مناطق تلك القبائل، قدم شرف خان قائمة بأسماء القلاع بينها اربعة من القلاع الواقعة في مناطق قبيلة زيبار هي قلاع قلادة، شوش، عمرانى وبازيران^{٣٥}. وقد حمل التشابه الظاهري بين بارزان وبازيران على الظن ان الاسمين يشيران الى مكان واحد. قطعاً لم يثبت ذلك لأنه اتضح ان قلعة بازيران موجودة فعلاً وهي تقع على الجانب الايمن من نهر خازر، في الجنوب الغربي من قلعة شوش والجنوب الشرقي من قلعة عمرانى. ولم يثبت انه وجدت انذاك قلعة في بارزان. يفضي هذا الى ترجيح الاحتمال المبني على اساس ان بارزان لم تكن في تلك الحقبة سوى قرية هامشية، ولهذا فأنها لم تنفك بعيدة عن الاضواء ومنسية. وبذات الوقت الذي تبدو فيه معلوماتنا عن ظهور بارزان شحيحة، فأن معلوماتنا عن البارزانيين الاوائل لا تصل الى المستوى المأمول. ويمكن ان يكون ما دونّه ايوب بارزاني في دراسته عن البارزانيين يحتوي على معلومات مهمة جداً. ان جزءاً كبيراً من مصادر معلوماته شفاهية متواترة، الا انها اصيلة. عرف ايوب بارزاني من المعمرين البارزانيين ان عدد اليهود في بارزان كان يفوق عدد

^{٣٤} شرف خان بن شمس الدين بدليس، شرفنامه تاريخ مفصل كردستان، به اهتمام ولاديمير ويليامينوف زرنوف، انتشارات اساطير، تهران، ١٣٧٧، ص ١٣ (مقدمه).

^{٣٥} نفس المصدر، ص ١٠٧.

المسيحيين والمسلمين مجتمعين^{٣٦}. ومع ان النص عاجز عن تحديد اطار زمني معين فإنه يكفي لأفترض انه في الفترة التي ظهر فيها الشيخ تاج الدين في بارزان، لم يكن المسلمون فيها سوى اقلية.

ان يكون عدد اليهود والمسيحيين اكثر من عدد المسلمين في بارزان ليس امرا غريبا. ويمكن لدراسة الوجود اليهودي والمسيحي في المنطقة ان تكشف سر هذه المسألة.

يعود تاريخ الوجود اليهودي في كردستان الى عهد غابرة. وبحسب بنيامين التطيلي الذي زار منطقة بهدينان في القرن الثاني عشر فإن اليهود هناك هم احفاد اليهود الذين سباهم الملك الاشوري شلمانصر الثالث في القرن الثامن قبل الميلاد^{٣٧}. وبعد شلمانصر الثالث قام ملكان اشوريان اخران بالعمل نفسه. ففي عام ٧٤٥ ق.م شن الملك تجلات بلاثر الثالث حملة على اسرائيل الحق خلالها هزيمة ماحقة باليهود ونفى اعدادا غفيرة منهم الى كردستان. بعده سار سرجون الثالث (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) على نفس السياسة وسبى اعدادا اخرى منهم واسكنهم في كردستان^{٣٨}. ويتعاقب السنين زاد عدد اليهود هناك. وللتدليل على حجمهم، يذكر كلوديوس جيمس ريج، ممثل شركة الهند الشرقية في بغداد، في رحلته الى كردستان في عام ١٨٢٠ ان مدينة العمادية وحدها ضمت مئتي اسرة يهودية^{٣٩}. وبهذا الشأن تشكل الزيارة التي قام بها جوزيف اسراييل بنيامين الى كردستان سجلا توثيقيا لحياة يهودها. استغرقت رحلة بنيامين الى كردستان ٥٥ يوما ولأنه كان متقاعسا عن تدوين التواريخ بدقة، فإنه نتج عن ذلك اننا صرنا لا نعرف بالضبط تواريخ زيارته للاماكن التي شملتها رحلته. وعلى اي حال، فقد انتهت الرحلة في عام ١٨٥٤ واستغرقت بمجموعها ثمان سنين زار خلالها مصر

^{٣٦} بي رش، بارزان وحركة الوعي القومي الكردي ١٨٢٦-١٩١٤، ص ٢٤.

^{٣٧} بنيامين بن نونة التطيلي، رحلة بنيامين ١١٦٥-١١٧٣، ترجمة عزرا حداد، المطبعة الشرقية، بغداد، ١٩٤٥، ص ١٥٤.

^{٣٨} هلويسست عمر قادر، يهود كردستان، مؤسسة حمدي للطباعة والنشر، السليمانية، ٢٠٠٧، ص

١٣.

^{٣٩} كلوديوس جيمس ريج، كمشتي ريج بؤ كوردستان لهسالي ١٨٢٠ دا، وهركيتراي محمهد حمده باقي، تهويريز، ١٩٩٢، ل ١٦٧.

وتركيا وفلسطين وكردستان وسوريا وايران. في هذه الرحلة زار بارزان مرتين واجتمع مع يهودها وتحدث عن تدني مستواهم الثقافي^{٤٠}. وعلى الأرجح انه زار بارزان في الفترة الواقعة بين عامي ١٨٥٢ و ١٨٥٤ لأن الزيارة تمت في الثلث الاخير من رحلته. وتعطي زيارته لبارزان الانطباع بأن عدد اليهود فيها كان حتى ذلك الوقت كبيرا. وهناك اشارة بخصوص اهمية بارزان بالنسبة لليهود وتتمثل في ان بارزان تعد في التقاليد الدينية اليهودية احد المركزين الرئيسيين لتعليم المحاخامات اليهود في المنطقة وقد تلقى العديد من المحاخامات علومهم الدينية في بارزان او في سندور. ويعبر اليهود عن ذلك بقولهم "الشريعة من سندور وكلمة الرب من بارزان"^{٤١}.

على هذا، يبدو وجود قرى يهودية في المنطقة طبيعيا جدا لأن اليهود الذين يكون قد مر حوالي الفا عام على وجودهم هناك، صاروا جزءاً من النسيج الاجتماعي العام. يفترض هذا ان يكون اليهود قد بنوا لأنفسهم عددا من القرى وانهم اقاموا لأنفسهم مجتمعا قائما على القيم التي افرزتها الديانة اليهودية والممتزجة بثقافة الشعب الذي عاشوا بينه. وبهذا الشأن فإنه حتى عام ١٩٤٨، قبل ان تشرع السلطات العراقية بطردهم من العراق، كان اليهود منتشرين في اغلب الاماكن وكان لهم في منطقة بهدينان قرىتان كل سكانها من اليهود هي سندور في شمال شرق دهوك وبيتنور في برواري بالا^{٤٢}. وتشير الدراسات التي نشرت حول موضوع اليهود في عام ٢٠٠٧ الى ان عدد القرى اليهودية الخالصة كان اكبر من ذلك ويصل الى سبع قرى^{٤٣}.

يقتضي هذا التحليل اعطاء الوجود اليهودي قيمة تاريخية. والى جانب القيمة التاريخية للوجود اليهودي في كردستان، هنالك قيمة تاريخية اخرى للوجود المسيحي. وهناك تباين في الاراء حول اول ظهور للمسيحية في كردستان.

^{٤٠} هلويسست عمر قادر، يهود كردستان، المصدر السابق، ص ٣٧.

^{٤١} اريك براور، يهود كردستان، ترجمة شاخوان كركوكي وعبدالرزاق بوتاني، دار آراس للطباعة والنشر، اربيل، ٢٠٠٢، ص ٢٧٨.

^{٤٢} صديق الدمولوجي، امانة بهدينان الكردية او امانة العمادية، المصدر السابق، ص ١٣٦-١٣٧.

^{٤٣} هلويسست عمر قادر، يهود كردستان، المصدر السابق، ص ٩٩.

فالمستشرقون المختصون بالسريانيات يرون ان المسيحية ظهرت في كردستان في بداية القرن الثالث، اما المصادر المسيحية فأنها ترجع قرناً اخر الى الوراء وترى ان المسيحية ظهرت في كردستان في نهاية القرن الاول وبداية القرن الثاني^{٤٤}. وهناك اراء ترى ان المسيحية ظهرت متأخرة في المنطقة وان تاريخ ظهورها يعود الى القرن الخامس^{٤٥}. مهما يكن، فأن كل الاراء تجمع على القيمة التاريخية للوجود المسيحي في المنطقة.

ان وجود ثلاث كنائس في العمادية ووجود حوالي ١٥ كنيسة اخرى في اطرافها بلغ عدد اتباعها اكثر من ٤٠٠٠ اسرة ووجود كنائس في عقرة^{٤٦} يشهد على مدى الحرية الدينية في المنطقة. وتتضمن المصادر اشارات هامة الى وجود دير للمسيحيين في بارزان ووجود قرى مسيحية خالصة في برواري بالا والعمادية ودهوك وعقرة^{٤٧}.

ولا ريب ان عددا كبيرا من القرى اليهودية والمسيحية مر بمرحلة تغيير ديموغرافي محركه الاساسي النزوح المتزايد للاكراد الى الاستيطان. ان عملية التحول الى الاستيطان استمرت حقبة طويلة وتسارعت بشكل خاص في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وكان اهم ما نتج عن هذه العملية التاريخية هو تزايد المستوطنات الزراعية الكردية. ومن الواضح ان العملية تركت اثارها على التركيبة الديمغرافية للقرى غير الكردية. وبفعل ذلك، تحولت كثير من القرى اليهودية والمسيحية من قرى تسودها طوائف غير مسلمة الى قرى مختلطة، ذلك ان تزايد ميل القبائل المترحلة الى الاستيطان حثها على الاستقرار في القرى الموجودة جنبا الى جنب اليهود والمسيحيين او بناء قرى جديدة.

^{٤٤} الدكتور فرست مرعي، دهوك وانحازها في المصادر السريانية، مجلة دهوك، العدد ٢٧، تموز ٢٠٠٥، ص ٦٧.

^{٤٥} صديق الدمولوجي، امانة بهدينان الكردية او امانة العمادية، المصدر السابق، ص ٨.

^{٤٦} كاوة فريق احمد شاولي آميدي، امانة بادينان ١٧٠٠-١٨٤٢ دراسة سياسية-اجتماعية-ثقافية، مؤسسة موكراني للطباعة والنشر، اربيل، ٢٠٠٠، ص ١٩٤.

^{٤٧} صديق الدمولوجي، امانة بهدينان الكردية او امانة العمادية، المصدر السابق، ص ٨.

وانعكس هذا على بارزان. ان كثرة عدد غير المسلمين فيها يعطي الانطباع بأنها كانت على الأرجح قرية يهودية او مسيحية. ولأنه كان لكلا الوجودين اليهودي والمسيحي قيمة تاريخية، فأن من غير الممكن الجزم بأسببية الوجود اليهودي على المسيحي في بارزان او اسببية الوجود المسيحي على اليهودي. ومهما يكن، يوفر ذلك الوجود غير الاسلامي المادة الضرورية لنفي اسببية وجود المسلمين فيها. وعلى هذا فأنا امام تحويلين كبيرين، عرقي وديني، حدثا في بارزان وفي كثير من القرى الاخرى. فمن الناحية العرقية، تحولت بارزان بفعل تزايد عدد الاكراد بالتدريج الى قرية يغلب عليها الطابع الكردي في البداية وتحولت في النهاية، بسبب نزوح اليهود والمسيحيين عنها، الى كردية خالصة. ومن الناحية الدينية، رافق التحول العرقي تحول ديني، اذ ان الوجود اليهودي-المسيحي فيها لم يعد يتناسب مع تحولها الى مركز مقدس لطائفة دينية قوام بنياتها الايديولوجية هو النقاء الروحي. ومن غير الممكن قطعاً اهمال الدور الذي لعبه عامل عدم الاحساس بالامان في نزوح الطوائف اليهودية والمسيحية عنها لأن فشل بارزان في اقامة علاقة سليمة مستديمة مع محيطها ورطها في حروب وتوترات عنيفة بلغت احيانا ظهور تحالفات قوية ضدها. ان قدرة الاقليات على الاستبصار المستقبلي وميلها الطبيعي الى الوئام والسلام الاجتماعي وتجنب الاجواء المشحونة بالتوتر، عمل بالتدريج على نحو مظاهر التنوع الديني وتغليب طابع التجانس فيها.

يعطينا كتاب ايوب بارزاني فرصة لتكوين تصور عن البارزانيين المسلمين الاوائل. يرى ايوب بارزاني ان اول ظهور للبارزانيين على مسرح الاحداث يقترن بحملة بارزانية على قلعة قمري (بضم القاف وسكون الميم) لأجبار البرواريين على دفع الخراج. يعني ذلك ان البارزانيين كانوا قد فرضوا هيمنتهم على البرواريين واجبروهم في ظروف غير معروفة على دفع اتاوة سنوية. ومن المرجح ان يكون تاريخ الحملة بين عامي ١٨٢٠ و ١٨٣٠^{٤٨}. يكشف هذا التاريخ ان البارزانيين لم يكونوا في تلك الحقبة قد تحولوا الى اعتناق العقائد التي نشرتها بينهم تكية بارزان. وهذه الفترة متزامنة مع فترة تأسيس المشيخة وفيها حصل الشيخ

^{٤٨} بي رش، بارزان وحركة الوعي القومي الكردي ١٨٢٦-١٩١٤، ص ٢٣.

عبدالرحمن، مؤسس المشيخة، على اجازة العمل بالطريقة النقشبندية^{٤٩}. وبالتمعن في سلوكهم في تلك الحقبة، فأف فكرتنا عنهم ستكون بلا ريب فكرة سيئة، ذلك ان هؤلاء البارزانيين الاوائل اعتمدوا في حياتهم على اقتصاد السلب وفرض الاتاوت وقام سلوكهم على اعتماد القوة المفرطة. كل هذا يكشف ان تأثير العامل الديني عليهم لم يكن فعالا. وتعطي الحملة انطباعا بأنهم، رغم شجاعتهم، لم يكونوا يجيدون ادارة الحرب ولم تكن خططهم الحربية محكمة. ويدل على ذلك ان حملتهم على قلعة قمرى قد فشلت فشلا ذريعا وانتهت بكارثة وقتل فيها عدد كبير من زعمائهم وضاعت هيبتهم. وقد نجح التحالف الذي قام ضدهم بين البواريين وأشورى جبال تيارى بأقليم حكارى، في تطويق خطر البارزانيين لعشرات السنين القادمة.

ان التمعن في ظروف بناء اول مسجد في بارزان يتيح لنا فرصة اخرى لكشف المستوى الحضارى للبارزانيين الاوائل. وتكتسب المعلومة التي يمنحنا اياها ايوب بارزاني عن المسجد اهمية استثنائية. يقول ايوب بارزاني ان القوس الحجرى الذى كان يتوج احد ابواب المسجد الداخلى نقر عليه اسم البتاء الذى شيده وهو باز بن زرية^{٥٠}. وهذا الاسم لا وجود له بين المسلمين لكنه شائع بين المسيحيين. وتعطينا المعلومة وجهين لتصور واحد. الاول، هو ان البتاء الذى بنى المسجد مسيحي وليس مسلما، وهو على الاغلب من مسيحيى القرية ذاتها. والثانى، انه لم يكن بين مسلمي القرية من يجيد حرفة البناء وانهم اضطروا بسبب ذلك الى الاستعانة ببتاء مسيحي. وفي هذه الظروف يكون لجوء المسلمين الى بتاء ليس على دينهم له ما يبرره. ويلخص هذا الامر حقيقة مفادها ان المستوى الحضارى للبارزانيين المسلمين الاوائل كان متدنيا جدا لدرجة انه لم يكن بينهم بتاء يبني لهم مسجدا. ولا يقترب بناء المسجد بتاريخ معين لكنه دمر في قصف للطائرات العراقية في عام ١٩٦٣.

وفي مطلق الاحوال لم تعط بارزان اسمها للبارزانيين الجدد الا في وقت متأخر. ان مصطلح "بارزاني" لم يستخدم في القرن التاسع عشر للدلالة على طائفة دينية

^{٤٩} نفس المصدر، ص ٣٣.

^{٥٠} نفس المصدر، ص ٢٧.

متميزة. حتى اواخر القرن التاسع عشر ظل البارزانيون يعتبرون انفسهم جزءاً من الزيباريين من الناحية القبلية ولم يكن تمردهم على سلطة ارسطراطيي زيبار وخضوعهم لتكية بارزان يعتبر سبباً كافياً لأعتبار انفسهم مختلفين عن الزيباريين. ان اول نص ورد فيه مصطلح "بارزاني" يعود الى الفترة الواقعة بين ١٨٢٠ و ١٨٣٠، وذلك في الملحمة الشعرية المعروفة بأسم ملحمة قمري التي تشكل جزءاً من الادب الشفاهي البارزاني. وكان ايوب بارزاني قد حصل عليها من احد افراد قوات البيشمركة ونشرها في عام ١٩٨٠. والملحمة لمؤلف مجهول وجري تداولها على نطاق واسع. وهي تشكل صورة من صور البلاغة وتوثق لحرب قبلية جرت بين البارزانيين الاوائل وبين تحالف البرواريين وآشوريي جبال تيارى. في هذه الملحمة يرد مصطلح "بارزاني" اربعة مرات ولا تذهب العبارة اكثر من الاشارة الى الانتساب لقرية بارزان. وفي الملحمة ذاتها يرد مصطلح زيباري خمس مرات للاشارة الى المقاتلين البارزانيين الذين خاضوا الحرب ضد البرواريين والاشوريين المتحالفين.

وبين ايدينا ثلاث نصوص تكشف ان الشيوخ البارزانيين حتى عام ١٨٥١ اعتبروا انفسهم زيباريين. النص الاول قصيدة دينية من ٩٥ بيت ثلاثي التصريح كتبها الشيخ عبدالسلام الاول في عام ١٨٤٢ عرّف نفسه في خاتمتها بأنه خالدي (نسبة الى مولانا خالد النقشبندي) من حيث الطريقة الصوفية، زيباري من حيث القبيلة وبارزاني من حيث القرية^{٥١}. والنص الثاني كتاب ديني قام الشيخ عبدالسلام الاول بأستنساخه في عام ١٨٤٧ عندما كان يقيم في قرية آسته اشار فيها الى نفسه بأعتباره "البارزاني قرية، الزيباري عشيرة"^{٥٢}. بعد ذلك بثلاث سنوات استنسخ الشيخ كتابا اخر بخطه عندما كان يقيم في مسجد كلاله. وعلى الرغم من انه اكتفى هذه المرة بالاشارة الى نفسه بالبارزاني، فإنه لا يبدو انه قد طرأ تغير في نظرتة.

^{٥١} انظر نص القصيدة في المصدر السابق، صص ١٧١-١٩٥.

^{٥٢} نفس المصدر، ص ٣٥.

وابتداءً من القرن العشرين صار مصطلح "بارزاني" يستخدم بمعنيين. أولاً، بمعنى الانتساب الى قرية بارزان كمسقط رأس او من حيث الاصل العائلي. وثانياً، بمعنى الاشارة الى الاتحاد القبلي الذي يضم الزيباريين المنشقين على سلطة ارستقراطية قبيلتهم الذين اختاروا الخضوع الارادي لسلطة مشيخة بارزان. ويبدو جلياً ان المعنى الاول اقدم ويشمل افراداً لا يشترط ان يكونوا مسلمين، في حين ان المعنى الثاني وضعت اسسه منذ البدء بحركة التوبة في عهد الشيخ محمد. لكن تكريس انفصال الشق الزيباري المتمرد على السلطة القبلية لم يتم الا في بداية القرن العشرين ونتج عن ذلك انفصال قبلي بشكل كامل بحيث لم يعد البارزانيون معنيين بانتسابهم الى قبيلة زيبار، وبذلك تكرست القطيعة بينهم كمجموعة ذات عقائد دينية متميزة وبين اصولهم القبلية السابقة.

يعبر مصطلح "بارزاني" عن حاجة الجماعة الى مظاهر للهوية الجديدة التي تحققت بعد الانفصال عن الزيباريين وتشكيل مجموعة دينية متميزة. ودعمت الجغرافيا تلك الحاجة منذ ان تحول نهر الزاب الكبير الى حدود طبيعية بين سلطة مشيخة بارزان وسلطة ارستقراطيي قبيلة زيبار. ويشكل الاسم، اي اسم، جزءاً هاماً من مقومات الهوية الخاصة لتكريس التمييز عن المحيط الاجتماعي.

المبحث الثاني

سلالة الشيوخ

نح شيوخ بارزان، في جعل التكية مركزاً لنشر عقائدهم. ويرتبط نجاحهم في هذا الشأن بتماسك العقيدة وممارسة القوة. وفي التحليل النهائي لأسباب النجاح لا يمكن الفصل بين تماسك العقيدة بأعباءه الاداء التي تتحول فيها العقائد الى قوة مادية وبين استخدام القوة بأعباءه الاداء التي تتم بموجبها حماية العقائد وفرضها عن طريق العنف. لقد توارثت سلالة الشيوخ قيم المشيخة جيلا بعد جيل وحققت نجاحات باهرة.

ان السؤال الذي يثار هنا هو: ما هو اصل هذه السلالة؟ ان الجواب على هذا السؤال ليس سهلا لأن المصادر التاريخية لا توفر القدر المطلوب من المادة الضرورية لتقديم جواب شاف. وعلى اية حال، فأنا امامنا بهذا الصدد نظرية جاهزة، هي نظرية الاصل الارستقراطي، يمكن ان تفتح الباب على مصراعيه لتناول هذه المسألة.

بحسب تلك النظرية، ينتسب شيوخ بارزان الى امراء العمادية. وهنالك رواية شفاهية متواترة عن اصل تلك الاسرة، محبوبكة بشكل درامي جذاب، نشرها ماخان شيرواني لأول مرة في عام ١٩٩٤^{٥٢}. تقول الرواية ان الابن الاصغر لأمر العمادية لم يعترف بوصية والده واغتصب السلطة من اخيه الاكبر، مسعود، وطرده من العمادية. هام مسعود على وجهه وعاش اياما صعبة في البراري. وفي النهاية، عبر النهر الى قرية هافنكا hevinka في المنطقة التي يقيم فيها البروزيون، وهم احد فخذ قبيلة زيبار، واقام في مسجدها. وخطا مسعود اول خطوة لتعزيز مركزه الاجتماعي عندما طلب منه الاهالي ان يصبح امام مسجدهم. وبالنظر لسمو

^{٥٢} ماخان شيرواني، بارزان ووجهته كي بارزانيان: ليكولينهويه كي ميداني و ميژوي لسمو بارزان تا بهاري ١٩٧٤، سهرچاهي پيشو، ل ١٢-١٣.

مركز ائمة المساجد في القرى، لم يجد مسعود صعوبة في التزوج من احدى نساء القرية.

وتمضي القصة فتقول ان احد جباة الضرائب تعرف عليه في القرية وسمحت تلك الفرصة لمسعود ان ينقل عن طريقه رسالة شفوية الى اخيه الامير يقر فيها بتنازله عن حقه في الامارة مقابل موافقة الامير على اعطائه حق جمع الخراج من القرى البروزية. وافق الامير على الصفقة وحقق ذلك لمسعود موارد مالية جيدة. بعد ذلك رحل مسعود عن هافنكا واستقر في آستي. وخلفه في ادارة الشؤون الدينية ابنه سعيد الذي انجب تاج الدين، الذي انتقل الى بارزان واقام السلالة البارزانية فيها.

ومن شأن تحليل هذه الرواية ان يسلط الضوء على جوانب هامة فيها. ان الشخصية المحورية في الرواية هي مسعود والحدث المحوري هو اغتصاب السلطة من صاحبها الشرعي. وككل الحكايات التي تختص بتمجيد الاصول الارستقراطية للاسر الشريفة، يتركز جوهر القصة على الصراع بين الخير والشر. هنا يمثل مسعود جبهة الخير، في حين يصبح اخوه الاصغر، الذي لا تذكر القصة اسمه، ممثلاً لجبهة الشر. وبخلاف كل القصص التي من هذا النمط، فأن الذي ينتصر في النهاية هو الشر وليس الخير لأن مسعود الذي خسر الحكم بفعل مؤامرة حاكها اخوه الاصغر، صار عليه ان يترك الامارة. وبحسب القصة، فأن الاخ الاصغر بلغ به الشر انه ارتكب اثمين دفعة واحدة، لأنه بأغتصابه السلطة من مسعود خالف ايضاً وصية والده الذي اوصى بالحكم لأبنه مسعود.

يعطي السياق العام للقصة انطباعاً بأنه كان يفترض ان يتولى الاخ الاصغر الحكم بعد والده وليس مسعود. لكن الوالد وهي يقاوم سكرات الموت قرر ان يكون الحكم لمسعود. وبدون اعادة صياغة القصة بهذا الشكل لا يتاح لنا ان نفهم السبب الذي حث الاب على الطلب من ابنه الاكبر تولي الحكم من بعده لأن العرف الجاري يعطيه الحق، بأعتبره الابن الاكبر، لحكم الامارة بعد والده حتى دون وصية. هكذا، فأن الاسباب الموضوعية للمؤامرة التي حاكها الاخ الاصغر ضد اخيه الاكبر تجعل مسعى الاخ الاصغر لأنتزاع الحكم من اخيه الاكبر يبدو وكأنه استرداد للحق الذي سلبه الاب منه في اخر لحظات حياته.

بعد اغتصاب السلطة من مسعود، لم يعد مسعود قادرا على البقاء في العمادية. ويجهد مؤلف القصة نفسه لتصوير مسعود يغادر العمادية وقد اعتصر الألم قلبه. لكن هذا الجانب من الحكمة لا يتناسب مع حجم الصراع. والانسب للقصة ان يكون مسعود قد غادر العمادية هاربا وخائفا على حياته لأن القتل في مثل هكذا مؤامرات يكون احد الاهداف الرئيسية لضمان الحكم، ذلك ان الشخصيات الخاسرة لن تقتنع بترك السلطة لمغتصبيها وستحاول ان تستردها في ظروف مناسبة.

والسياق العام للقصة لا يخفي تعاطفه مع مسعود المظلوم. وبالمقابل، فإن هذه المظلومية لا تخفي صفة التخاذل والتهاون. ويعطينا النص مبررات كافية لأعتبار مسعود شخصية ضعيفة ومتهارة وغير قادرة على مواجهة المصاعب.

وربما كان احد هنات القصة هو ان مسعود يقرر ان يقيم في هافنكا، في حين انه يفترض فيه ان يقيم في قرية لا تخضع لسلطة الامير. وتخلو القصة بالكامل من شرح الطريقة التي استطاع مسعود بواسطتها اقناع قروبي هافنكا بكمال وضعه الاجتماعي، لأنه بأعتباره غريبا كان لا بد له من قصة يبرر فيها انفصاله عن جماعته. واذا اعتبرنا انه قص عليهم قصته كما هي، فإن من الصعب ان نصدق ان القرويين ارتضوا ان يأووه بينهم وهم يعرفون ان الامير يكرهه.

وتبين الصفقة التي تمت بينه وبين الامير انه رغب في ان ينزع عن نفسه صفة الامير المتطلع الى العودة للحكم. ويعكس ذلك يأسه من قدرته على العودة الى حكم العمادية. هكذا فإن اقتراحه بمقايضة الشرعية بالسلام يبدو منطقيا جدا. ففي تلك الصفقة حصل مسعود على ايرادات كافية للعيش بعيدا عن العمادية، وحصل الامير المغتصب على الشرعية التي يتوق اليها بتنازل اخيه عن الحكم طواعية.

وتمثل الصفقة المبرمة نقلة جوهرية في حياة مسعود. فعن طريقها تغير وضعه الطبقي وتحول من رجل دين يعتاش على رعاية الشؤون الدينية لمواطنيه الى جزء من الارستقراطية الزراعية التي يقوم اقتصادها على جمع الخراج من الفلاحين. ولا تعطي القصة اية تفاصيل عن حياته بعد الانتقال الى صف الارستقراطية الزراعية.

ولأسباب لا تفصح عنها القصة، ترك مسعود هافنكا واستقر في آستي القريبة منها. وليس هناك ادلة قادرة على اقامة الصلة بين اقامته في آستي وبين ارستقراطيته الزراعية.

وفي الحقيقة فإن الرواية تنسجم الى حد كبير مع ظاهرة يمكن ملاحظتها بكثرة في تاريخ امارة العمادية وهي ظاهرة صراع الاخوة. لقد كان لهذا الصراع الداخلي تداعيات سيئة جدا لأنه ادى الى ان تعيش الامارة حقبا مطبوعة بالتوتر والمشاحنات والحروب. ان اولى المعلومات التي وصلتنا من المدونات التاريخية حول الصراع الداخلي بين الامراء يعود الى الفترة الواقعة بين سنتي ١٦٧٩ و ١٦٨٢ وهي فترة صراع بين الاخوين بارام وسعيد. وقصة هذا الصراع قريبة جدا من الرواية الشفاهية المتواترة وتبدأ بأعتراض الاخ الأكبر سعيد خان على تولي اخيه الاصغر بارام خان مقاليد الحكم بعد وفاة الامير قباد خان بك الثالث. وينتهي الصراع بأستيلاء سعيد خان على السلطة بعد وفاة سعيد خان^{٥٤}.

وفي عهد حكم الامير بهرام باشا الكبير الذي تولى الحكم في عام ١٧١٤ ادى الصراع بين الامير بهرام والامير سعيد بك الى مناوشات عديدة بينهم^{٥٥}. والامير الوحيد الذي طرد اخوته من العمادية هو اسماعيل باشا الاول الذي واجه جبهة قوية ضده في عام ١٧٨٧ قادها اخوته الاربعة طيفور بك ولطف الله بك وحاجي خان وحسن بك. ومن بين هؤلاء لجأ حسن بك ولطف الله الى مناطق قبيلة زيبار. وفي بعض الحقب ولأسباب تتعلق بفشل الامراء في وضع حد لخلافاتهم، استعان بعضهم بأمارات بابان وسوران وبوتان ضد بعضهم وبسبب ذلك خرج الصراع من اطار الصراعات الداخلية وامتزج بالصراع بين الامارات المتنافسة^{٥٦}.

ومهما يكن، فإن تاريخ امارة العمادية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لا يدعم الرواية الشفاهية. ان اسم مسعود لا يظهر في اي صراع بين الاخوة على

^{٥٤} كاوة فريق احمد شاولي آميدي، امارة بادينان ١٧٠٠-١٨٤٢: دراسة سياسية اجتماعية ثقافية، المصدر السابق، ص ٣٦.

^{٥٥} نفس المصدر، ص ٥٣.

^{٥٦} حول تفاصيل الصراعات الداخلية في امارة العمادية انظر: كاوة فريق احمد شاولي آميدي، امارة بادينان ١٧٠٠-١٨٤٢: دراسة سياسية اجتماعية ثقافية، المصدر السابق، ص ٣٦-١٠١.

السلطة ولا يتضمن تاريخ قبيلة زيبار الا نماذج قليلة لألتجاء الامراء المتخاصمين اليها، وهؤلاء لم يلجأوا اليها للاختباء، بل للاستعانة بها والتخطيط لجولة جديدة من المواجهة مع العمادية.

وبالعودة الى الرواية الشفاهية، فأنا نلاحظ ان خطها الدرامي يشهد تحولات طبقية حادة وسريعة. بهذا المعنى لا تعبر القصة عن صراع الارادات المتنافرة بقدر ما تعبر عن الاستسلام للقدر. وفي هذا الاطار يتحول مسعود، بعد ان يخسر الصراع، من ممثل لأعلى سلطة في الامارة الاقطاعية الى فقير معدم. هذا الانتقال الفجائي السريع من الثراء والسلطة الى الفقر المدقع يفقده كل الاحترام الاجتماعي الذي كان يحظى به في السابق. وعلى حين غرة يتحول الى رجل دين يحظى بفائق الاحترام. وفي النهاية، يبتسم له الحظ ويعقد صفقة مع الامير المغتصب تتيح له ان ينتقل الى صف الارستقراطية الزراعية.

في القصة تتوزع الادوار بدقة بين الشخصيات الاساسية الثلاث: مسعود، سعيد وتاج الدين. وفي حين يفترض ان يكون مسعود هو الشخصية الاساسية الوحيدة، تجعل القصة من تاج الدين عمادها الاساسي. ان كلا من مسعود وسعيد مسخران في القصة لخدمة تاج الدين. فالاول، مسعود، يوفر له النسب الارستقراطي الذي يفضي الى سمو منزلته الاجتماعية. والثاني، سعيد، لا دور له سوى الزواج وانجاب تاج الدين من زواجه. هكذا فإن القصة تضمن لتاج الدين كل الشروط الضرورية لكسب الاحترام الاجتماعي: نسب ارستقراطي مشرف بأعتبره ينتمي الى اسرة امراء العمادية، ومركز اقتصادي محترم يوفره له خراج القرى، وهيبة اجتماعية ناتجة عن كونه رجل دين وقور.

هنا يختلط الانتساب الى امراء العمادية بانتساب امراء العمادية الى الخلفاء العباسيين، ذلك ان النظرية التي اشاعها امراء العمادية عن اصلهم او شاعت عنهم تقول انهم من سلالة الخلفاء العباسيين^{٥٧}. وهذا الانتساب الى الخلفاء العباسيين لا يظهر كحقيقة تاريخية مسلم بها لأن التاريخ المشوش للامارة لا يوفر

^{٥٧} جهليلي جهليل، كورده كاني ئيمپراتوريه تي عوسمانى، وهريگيرانى دكتور كاوس قهفتان، دهزگاي چاپ و بلاؤوردنهوى كوردى، بهغدا، ١٩٨٧، ل ١٠٩.

مبررات كافية للبت في هذه المسألة. ان هناك قدرا كبيرا من الغموض يتعلق بالحقبة التي تأسست فيها الامارة. ان معلوماتنا عن المئتي عام الاولى من عمر الامارة شحيحة للغاية ولا تتضمن المدونات التاريخية، المعاصرة لحقبة تأسيسها، اي شيء. ويغلب على اراء الباحثين ترجيح تأسيسها في حدود القرن الثالث عشر الميلادي. وفي هذا الشأن فأنا علينا ان ننتظر حتى القرن الخامس عشر حتى نحصل على معلومات تاريخية عن الامارة ابتداء من حكم الامير زين الدين^{٥٨}.

وفي القصة خلل لا يتناسب مع السياق التاريخي لظهور تاج الدين في بارزان. ان الفرق الجوهرى بين مشيخة بارزان ومشيختي بجيل السورجية ونهري هو ان الزعامة الدينية في بارزان، على عكس الزعامتين الدينيتين في بجيل ونهري، لم تكن ارستقراطية زراعية ولم يكن نظامها الاقتصادي اقطاعيا (انظر: نظام الطاعة). وفي الحين الذي لم تمنح مشيختنا بجيل ونهري لأتباعهما هوية خاصة، حققت بارزان لأتباعها هوية خاصة، قائمة من حيث الاقتصاد على الغناء الاقطاع. تاريخيا، قادت مشيخة بارزان كفاح الفلاحين وحررتهم من اضطهاد الارستقراطية الزراعية الزبانية. ومن نافلة القول انه لا يستقيم ان تقود الارستقراطية الزراعية الدينية كفاح الفلاحين ضد الارستقراطية الزراعية الاقطاعية. هكذا فأنا تصوير الامر وكأنه صراع بين ارستقراطيتين لا يتناسب مع الوقائع التاريخية. ويفضي ذلك الى ان الباس تاج الدين رداء الارستقراطية الزراعية وليس رداء الطريقة الصوفية يجعل ظهوره التاريخي في بارزان بلا معنى وينزع عنه قوته كباني اسرة بدأت من لا شيء واستطاعت بصلابتها ان تؤثر في مجريات الاحداث في المنطقة.

ان ايا من الروايات الشفاهية والمدونات التاريخية لا يعين تاريخا محمدا لظهور تاج الدين في بارزان. واذا تتبعنا تاريخ الاجيال الثلاثة الاولى لكل من تاج الدين وعبدالله وعبدالرحمن، فأنا نحصل من الشيخ عبدالرحمن وحده على تاريخ وفاته في عام ١٨٦٥، اما الاثنان الاخران فأنا المعلومات عنهما معدومة. هكذا، فأنا

^{٥٨} كاوة فريق احمد شاولي آميدي امارة بادينان ١٧٠٠-١٨٤٢: دراسة سياسية اجتماعية ثقافية، المصدر السابق، ص ٣٢.

إذا افترضنا ان الشيخ عبدالرحمن ولد في عام ١٨٠٠ وان بينه وبين جده تاج الدين خمسون سنة، نستطيع ان نفترض ان تاج الدين قد ولد في عام ١٧٥٠ وإذا اعتبرنا انه ظهر في بارزان بعد العشرين من عمره يكون الزمن الافتراضي لظهوره هناك بين سنتي ١٧٧٠ و ١٧٨٠.

وهذه الفترة معاصرة للحقبة التي حكم فيها الامير اسماعيل باشا الاول في امارة العمادية. جدير بالتمعن ان هذه الحقبة تشكل فترة صراع مريب بين الامير اسماعيل باشا الاول وبين المعارض بيرام بك بن سلطان بدرالدين. ولأن الامير اسماعيل باشا لم يكن شخصية محبوبة، لم يجد معارضه بيرام بك صعوبة في استمالة الكثير من القبائل الى صفه، بينها قبيلة زيبار التي انضمت اليه على امل التخلص من الامير القاسي. وعلى اية حال، فأن الحظ لم يكن الى جانب المعارضين، اذ هزمهم الامير في معركة بالقرب من العمادية وقلل من خطرهم^{٥٩}.

في هذه الفترة سيطرت على المنطقة اخطار محيقة اشاعت التوتر والذعر في كل مكان. وتشير المصادر التاريخية بجلاء الى ظهور ثلاث اخطار متتابعة جعلت الحياة لا تطاق. ففي عام ١٧٧٨ انتشر الطاعون وحصد اعدادا كبيرة من الارواح وترك اثارا سيئة على الوضع الاقتصادي وطبع الحقبة بمظاهر الاضطراب^{٦٠}. واستنادا الى مخطوطة ممدوح بريفكي، الموجودة في مكتبة جامعة دهوك، فقد تلا ذلك الخطر او رافقته موجة من الغلاء عمت المنطقة بسبب تدهور الزراعة وتوقف حركة التجارة ووفيات الفلاحين ونفوق الحيوانات وفقدان الامن. وفوق كل هذا، تعرضت المنطقة الى حملة عسكرية شرسة خطط لها والي بغداد للقضاء على الامارة والسيطرة على المنطقة^{٦١}.

لا ريب في ان هذه الاخطار شكلت تهديدا محيقا بالمنطقة وقد نتج عنها اخلاء قري ونزوح للسكان المذعورين من الطاعون والحرب. وفي هكذا ظروف فأن ايجاد

^{٥٩} نفس المصدر، ص ٦٥.

^{٦٠} ياسين بن خيرالله الخطيب العمري، زبدة الاثار الجليلة في الحوادث الارضية، تحقيق عماد عبدالسلام رؤوف، مطبعة الاداب، النجف، ١٩٧٤، ص ١٤٥.

^{٦١} كاوة فريق احمد شاولي آميدي، امارة بادينان ١٧٠٠ - ١٨٤٢: دراسة سياسية اجتماعية ثقافية، المصدر السابق، ص ٦٧.

صلة افتراضية بين ظهور تاج الدين في بارزان وبين انتشار الطاعون وتفاقم المجاعة وويلات الحرب يكون ميسورا. وقطعا فان هذا يتطلب منا ان نبدأ من تاج الدين وليس من مسعود. وان اول خطوة في هذا الشأن يجب ان تبدأ من اسم مؤسس السلالة.

ان هناك بعض الاختلاف في تحديد سلسلة نسب الشيوخ بين مسعود بارزاني وايوب بارزاني على الرغم من انهما ابنا عمومة. وبحسب مسعود بارزاني، فان اول من اقام في بارزان واسس تكيته هو الشيخ تاج الدين^{٦٢}. اما ايوب بارزاني فيرى ان مؤسس التكية هو ملا محمد وليس الشيخ تاج الدين وان ملا محمد هو اول من وضع الخلية الصوفية في بارزان^{٦٣}. اما بقية السلسلة فهي موحدة. والاختلاف بينهما لا يقتصر على اسم مؤسس السلالة فحسب بل يشمل رتبته الدينية كذلك. ففي حين يجوز مؤسس السلالة عند مسعود بارزاني على رتبة شيخ، يجوز عند ايوب بارزاني على رتبة ملا. هكذا، ففي حين تبدأ السلسلة عند مسعود بارزاني بالشيوخ، فهي عند ايوب بارزاني لا تبدأ بالشيوخ بل بالملالي وفي تقديره ان كلا من محمد وعبدالله لم يكونا من الشيوخ وان المشيخة تبدأ بالشيخ عبدالرحمن الذي بلغ مرتبة الشيوخ في الفترة الواقعة بين ١٨٢٠ و ١٨٢٥^{٦٤}، اي بعد حوالي اربعين سنة من التاريخ الافتراضي لظهور تاج الدين في بارزان.

ولأن التباين في الاراء لا يشمل فترة ظهور مؤسس السلالة او دوره او اصله، فانه يرجح ان يكون كل من الشيخ تاج الدين وملا محمد شخصا واحدا وبذات الوقت يرجح ان يكون تاج الدين لقباً لملا محمد. وترد في حاشية الكتاب الذي استنسخه الشيخ عبدالسلام الاول بيده فقرة بالغة الاهمية يذكر فيها اسمه بالكامل بشكل عبدالسلام بن ملا عبدالله بن ملا محمد^{٦٥} (انظر: بارزان والبارزانيون). والنقطة الهامة هنا هي ان لقب "الشيخ" لا يقترب بأي من اسمي

^{٦٢} مسعود البارزاني، البارزاني والحركة التحررية الكردية ١٩٣١ - ١٩٣٢، المصدر السابق، ص ١٦.

^{٦٣} بي رش، بارزان وحركة الوعي القومي الكردي ١٨٢٦ - ١٩١٤، المصدر السابق، ص ٢٥.

^{٦٤} نفس المصدر، ص ٣٣.

^{٦٥} نفس المصدر، ص ٣٥.

عبدالله ومحمد وقد استعويض عنها بلقب "ملا". والشيء نفسه يمكن رؤيته في حاشية كتاب اخر استنسخه الشيخ عبدالسلام الاول يقتن فيه لقب ملا وليس شيخ بأسم والده عبدالله. عليه، فإنه يبدو جليا ان الصاق لقب شيخ بكل من تاج الدين وعبدالله حدث بعد ان صار لشيوخ التكية ابتداءً من عبد الرحمن شأن كبير في تقرير مصير المنطقة وان ايا منهما لم يكن شيخا.

ان استخدام كلمة "تاج" في الالقاب المفخمة لم ينفرد به ملا محمد واستخدامه شائع في العقائد الصوفية التي وردت الى المنطقة. فالشيخ حسن شمس الدين ابو محمد الذي تلقى علومه الدينية من المتصوف المشهور محي الدين بن عربي ويعد من ابرز زعماء الايزيديين بعد الشيخ عدي، عرف بلقب "تاج العارفين"^{٦٦} وعرف الشيخ خالد نقشبندي بلقب تاج الدين. ولا ينحصر استخدام كلمة "تاج" في الالقاب المفخمة للأفراد، انما يتعداه الى استخدامه حتى في عناوين الكتب الصوفية كجزء من متطلبات التفخيم، كما هو حاصل في عنوان كتاب "تاج الرسائل" لأبن عربي.

من الملفت في هذا الشأن ان الشيخ تاج الدين الذي هو في الوقت نفسه ملا محمد، يتفوق على مسعود الذي يفترض فيه ان يكون جده، في انه شخصيته تاريخية غير مشكوك في وجودها، اي انه بعكس مسعود يعتمد على التاريخ في اثبات وجوده، في حين ان مسعود لا يتيسر له الاعتماد على التاريخ لأثبات وجوده. اننا على الاقل نجد ذكرا للملا محمد في نص تاريخي لا تحوم اية شكوك في وجوده يتمثل في العبارة التي كتبها الشيخ عبدالسلام الاول بيده في حاشية احد الكتب التي استنسخها في عام ١٨٤٧ والتي اشار فيها بالنص الى اسم جده ملا محمد.

وإذا اعتبرنا ان الوظيفة الاساسية للرواية الشفاهية المذكورة هي تفسير وجود تاج الدين المفاجيء في بارزان واعتبرنا ان الرواية لا تدعمها الوقائع التاريخية وقررنا ان نظرية الاصل الارستقراطي مجرد خرافة، فأن السؤال الذي تدعو الحاجة لطرحه هنا هو: من اين اتى تاج الدين؟

^{٦٦} رشيد الخيون، الاديان والمذاهب بالعراق، منشورات لسان الصدق، لندن، ٢٠٠٥، ص ٨٣.

في هذا الشأن هناك نظريتان. تقوم النظرية الاولى على الترويج للاصل المحلي، بمعنى ان اصل السلالة لا يخرج من حدود المنطقة. اما النظرية الاخرى فقوامها ان اصل السلالة هو من خارج المنطقة. يلفت النظر هنا ان كلا النظريتين ومعها الرواية الشفاهية المتواترة تجمع كلها على ان اصل السلالة هو من خارج بارزان. وفي حين تتقيد النظرية الاولى بحدود في اطار المنطقة، لا تتقيد النظرية الثانية بأية حدود.

ومجسب نظرية الاصل المحلي يفترض ان اصل السلالة يعود الى منطقة لا تبعد كثيرا عن بارزان. هنا يمكن الاعتماد على فرضيتين. الاولى ترجع اصل سلالة الشيوخ الى اطراف العمادية. وبأنتزاع المكونات الارستقراطية من الرواية الشفاهية، يمكن ان يكون الشيخ تاج الدين قد نزح من اطراف العمادية الى بارزان في الحقبة التي تحولت فيها المنطقة الواقعة بين العمادية وزاخو الى منطقة كوارث وحروب وامراض، شهدت فيها العمادية واطرافها انتشار مرض الطاعون. ولا ريب انه نتج عن كل ذلك نزوح للسكان. يقضي ذلك بأن حركة نزوح السكان يجب ان تكون نحو الشرق، حتى حدود منطقة برادوست biradost وربما ايضا نحو الجنوب الشرقي، حتى اطراف مدينة عقرة. ويناسب هذا التحليل الرواية الشفاهية التي ترجع اصل السلالة الى العمادية.

اما الفرضية الثانية فتري ان اصل السلالة يعود الى قبيلة زيبار. ويدل على ذلك بيت من القصيدة التي كتبها الشيخ عبدالسلام الاول في عام ١٨٤٢ اعتبر نفسه فيها زيباريا من حيث الانتماء القبلي. وهذا الاقرار يتعارض مع المزاعم بشأن انتماء الشيوخ لسلالة امراء العمادية لأن امراء العمادية لم يعتبروا انفسهم، من الناحية القبلية، زيباريين. واكبر ثغرات هذه الفرضية هي انها لا تنسجم مع السوسولوجيا الريفية لأن اعتبار سلالة الشيوخ سلالة زيبارية يستدعي ان تكون هناك قرية زيبارية محددة اتى منها مؤسس السلالة وبدون تحديد هذه القرية، وهذا عمل لم يتم طوال المئة والخمسين سنة الماضية، يفقد ارجاع اصل السلالة الى قبيلة زيبار كل معانيه.

ويعكس الاحساس بالانتماء الى قبيلة زيبار درجة الاندماج الاجتماعي لسلالة الشيوخ البارزانيين مع محيطهم الزيباري. لكن هذا الاندماج اخذ يخف تدريجيا

لدرجة انه بعد مضي نصف قرن على كتابة تلك القصيدة لم يعد شيوخ السلالة يعتبرون انفسهم زيباريين ولم يعد اتباعهم يقيمون اي اعتبار لأصولهم القبلية السابقة.

وتفترض النظرية الثانية ان اصل السلالة يعود الى خارج المنطقة. وهذا التعميم مقصود، يراد منه التقليل من شأن عامل المكان. وفي الحقيقة، فإن عامل المكان لا اثر له في العقائد الصوفية. والحركة الصوفية في جوهرها حركة لا قومية، اي غير مقيدة بترويح ارائها بين قومية معينة، ولا اقليمية، اي انها لا تلتزم بالعمل في اقليم معين. وفي تقديرها ان مساحة نشاطها لا تحدده المعايير الجغرافية وهي بهذا المعنى تتجاوز الاعراق واللغات والجغرافيا. هنا يصبح كل شيء معلقا على الارادة وليس على اي عامل اخر ويصبح مفهوم الوطن والمجتمع والاصل بلا اي معنى.

والمنطقة لم تنفك تجذب الدرايش والمتصوفة من كل مكان. ان اكبر طريقتين صوفيتين في المنطقة، القادرية والنقشبندية، تفتقدان الى الاصول المحلية. فالقادرية تقترن بالشيخ عبدالقادر كيلاني gaylani، المتصوف الكبير، الذي جاء من ايران واقام في بغداد ومنها نشر مذهبه الذي استمد سماته الرئيسية من المذهب الحنبلي. وظل القادريون ردحا طويلا من الزمن مجرد طائفة بغدادية محلية. لاحقا انتشرت القادرية خارج بغداد واول ظهور لها بين الاكراد كان في القرن الثالث عشر على يد الشيخ عبدالعزيز بن الشيخ عبدالقادر كيلاني^{٦٧}. وقياسا الى القادرية، ظهرت النقشبندية بين الاكراد في وقت متأخر. وهذه الطريقة حاولت اعطاء قيمة صوفية للارادة والحياة. وعلى الرغم من اقترانها ببهاء الدين نقشبندي، فإن التراث النقشبندي لا يعتبره مؤسسا للحركة النقشبندية بل يعده مطورا لها بأعتباره اوصل مبادئها الثمانية الى احد عشر مبدأ^{٦٨}. وبين الاكراد اقترنت النقشبندية بالشيخ خالد شهرزوري، من قراداغ بالقرب من السليمانية.

^{٦٧} دكتور هه لكوت مهلا حه كيم خانه قيني، ريشو پيشينهى ريبازى نه قشبه ندى له كوردستاندا، وه رگيرانى سديق صالح، گوڤارى سه نتهرى لينكولينهوى ستراتييجى، ژماره ١، سالى شه شم، شوباتى ١٩٩٨، ج ١٨.

^{٦٨} سبنسر ترمنجهام، الفرق الصوفية في الاسلام، المصدر السابق، ١٩٩٧، ص ١١٠.

درس خالد، الذي سيعرف بعدما يصبح مرشداً نقشبندياً بأسم مولانا خالد نقشبندي، التصوف في الهند على يد الشيخ عبدالله دهلوي واخذ اجازة الارشاد منه. وهذه الطريقة انتشرت اول مرة في سنندج، اذ ان الشيخ خالد نجح في انشاء بعض الخلايا الصوفية فيها خلال رحلة عودته من الهند الى السليمانية. وادت جهوده لاحقاً الى نشرها بين اكراد السليمانية وبهدينان وبلغت ذروة انتشارها بين الاكراد في الفترة من ١٨١١ الى ١٨٢٠^{٦٩}.

تتميز الطريقتان القادرية والنقشبندية بنجاحهما في اختراق الحواجز الجغرافية وقد نشرت خلاياها الصوفية في اماكن متباعدة وكفت كل منهما عن ان تكون مجرد ايدولوجيات محلية لطوائف لا ترتبط مع بعض بأية صلة. والى جانب هاتين الطريقتين العابرتين للحدود، جذبت بهدينان دراويش ومتصوفة اخرين لم يصل حجم نجاحهم الى المستوى الذي وصلت اليه الطريقتان القادرية والنقشبندية. وقد اكتفى هؤلاء بزرع عقائد صارت بشكل تدريجي جزءاً من ثقافة المنطقة.

ويعطينا تأسيس التكية القادرية في بريفكان صورة واضحة عن دور العناصر التي اتت من خارج المنطقة في صياغة الثقافات المحلية. ان الاسرة البريفكانية هي من نسل الشيخ شمس الدين قطب. ويلف الغموض حياة الشيخ شمس الدين قطب وعقائده. وتشير الروايات الى انه وفد الى المنطقة من مدينة اخلاط في كردستان الشمالية^{٧٠}. واستناداً الى العباسي، فإن التكية البريفكانية كانت تتبع طريقة خلوتية - سهروردية في التصوف قبل ان تتبنى طريقة التصوف القادرية^{٧١}. وهذه النقطة جديرة بالاهتمام لأنها تسمح بمعرفة العقائد البريفكانية قبل ان يتم التحول من التصوف الخلوتي - السهروردي الى التصوف القادري.

اشتهرت الطريقة الخلوتية بقدرتها على تدريب الدراويش. ويراد بتدريب الدراويش اعدادهم في مدارس ايدولوجية خاصة لتعلم اصول نشر العقائد في بيئات ثقافية متباينة. ومن بين كل الطرق الصوفية، تبدو الخلوتية اكثرها عملاً

^{٦٩} دكتور ههلكهوت مهلا حهكيم خانقيني، ريشهو پيشينهي رييازي نهقشبهندي لهكوردستاندا، سهراوهي پيشو، ل ١٣-١٤.

^{٧٠} صديق الدمولوجي، امارة بهدينان الكردية او امارة العمادية، المصدر السابق، ص ٦٥.

^{٧١} محفوظ محمد عمر العباسي، امارة بهدينان العباسية، مطبعة الجمهورية، الموصل، ١٩٦٩، ص ١٤٣.

بشكل مبرمج. ومع ذلك تبقى اصولها غامضة. وهي تفتقد الى مؤسس معروف، ولذلك فإن تاريخها يرتبط بأكثر من مؤسس وقد كانت في البداية ترتبط بصلات قوية بتقديس مفرد للامام علي واحفاده. واجتهدت الخلوئية لاحقا لمراجعة بنياتها الايديولوجية وتحلت عن مظاهر التقديس المفرد للامام علي. وعلى الرغم من ان ذلك تسبب في ابتعادها عن جذورها الاصلية، فإنه اتاح لها ان تزيل التوتر مع محيطها السني في الاناضول^{٧٢}.

وفي حقب معينة اقامت الخلوئية صلات بفلسفة الاشراق للسهورودي. واعطت تلك الصلات انطباعا بأن الخلوئية امتزجت بفلسفة الاشراق واستمدت منها بعض عقائدها. وفي الذهنية السنية تقترن فلسفة السهورودي بالزندقة، وهي حركة فكرية حامت شكوك كثيرة حول علاقتها بالاتجاهات المادية. وان اعتماد السهورودي في تشكيل بنياته العقائدية التصوفية على الحلاج له اهمية كبيرة لمعرفة جذوره الفكرية. وكلا المفكرين، الحلاج والسهورودي، قتلا على ايدي الحكام السنة بتهمة الزندقة. يقوم قوام فلسفة السهورودي على تبجيل النور، فمن نور الله المطلق نشأ كل شيء وان كل ما هو موجود في العالم المادي يستمد وجوده من نور الله. وعلى وجه العموم، وافق الفلاسفة الشيعة على العناصر الاساسية في فلسفة الاشراق التي شكلت جزءاً مهماً من التفكير الفلسفي الايراني في نهاية العصر الوسيط^{٧٣}. وهذا التراث الغني للخلوئية - السهورودية يشكل جزءاً من تراث تكية البريفكاني.

وتنفرد بهدينان من بين كل المناطق الكردية بكونها المنطقة الوحيدة التي جذبت اليها دراويش وصوفيين مهمتهم اعادة صياغة ديانة جماعة غير مسلمة هي الايزيدية. ومهما كان الظن بالمظهر التاريخي للايزيدية، فهي في كل التحليلات ديانة عريقة. ومكمن مشاكلها هي انها لم تحافظ بعد ظهور الاسلام على بنياتها الايديولوجية وتحولت الى ديانة مشوشة. وبغض النظر عن المستوى الذي آل اليه تشوش الديانة، فإن الايزيدية وعت حاجتها الى الاصلاح وظلت

^{٧٢} سبنسر ترمينجهام، الفرق الصوفية في الاسلام، المصدر السابق، صص ١٢٩-١٣١.

^{٧٣} آن ماري شيميل، ابعاد عرفاني اسلام، صص ٤٢٩-٤٣٢.

ردحا طويلا من دون اصلاح حتى ظهر الشيخ آدي (عدي بالعربية) ليقوم بخلق بنيات ايديولوجية تناسب تغير العصر ولا تتعارض بشكل حدي مع اصول العقيدة. ومن وادي لالش بدأ الشيخ آدي خطوات الاصلاح.

ليس هناك تباين في الاراء حول دور الشيخ آدي في الاصلاح الديني. وعلى الرغم من ان الشيخ آدي غريب عن الايزيديين فان ذلك لم يمنعه من الاعتقاد ان امامه رسالة يجب ان يؤديها. وتكمن المشكلة في الاصول الغامضة للشيخ آدي. ومهما كانت الاراء متباينة في هذا الشأن، فمنها تتشكل نظريتان، ترجع واحدة منها اصله الى لبنان وتعتبره عربيا، والاخرى لا ترى منطقا في اعتباره عربيا من لبنان وتعتقد انه من اكراد جبال حكاري. وازاء هاتين النظريتين، فأنه سواء كان الشيخ آدي عربيا او كرديا، فالاجماع حوله قائم على انه جاء من خارج المنطقة. هكذا، فان عروبه تجعله بكل وضوح من خارج المنطقة، وكرديته لا توفر اي برهان يستدل منه على كونه من المنطقة ذاتها. وبحسب زهير كاظم عبود فأنه يجب النظر اليه باعتباره "مجددا للعقيدة الايزيدية وواضعا لأسس اجتماعية حافظت على بقاء الدين والمجتمع الايزيديين"^{٧٤}. وبأعتباره صوفيا، لم يجد الشيخ آدي مشكلة في فهم الميول الصوفية للايزيدية. وتشكل تلك الميول سمة واضحة في الديانة الايزيدية وهي تقلل من شأن العوامل المادية في الحياة وتقيم صلة بين الفقر والنقاء الروحي، على الرغم من المظاهر الطبقيّة الحادة في المجتمع الايزيدي^{٧٥}.

وقبل ما يناهز المئة عام من التاريخ الافتراضي لظهور الشيخ تاج الدين في بارزان، ظهر شيخ اخر في شوش، جنوب بارزان، واسس حركة دينية فيها. واستنادا الى خسرو شيخ مرشد شيخ بديع فأنه في اواخر القرن السابع عشر ظهر الشيخ

^{٧٤} زهير كاظم عبود، عدي بن مسافر مجدّد الديانة الايزيدية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٥، ص ١١.

^{٧٥} زهير كاظم عبود، الايزيدية حقائق وخفايا واساطير، مركز قنديل للنشر والاعلام، السلبيانية، ٢٠٠٣، ص ٦٨.

عبدالله بين قبيلة سورجي واسس سلالة من الشيوخ ماتزال تتمتع بالنفوذ بين السورجيين^{٧٦}.

ومن شأن اجراء مقارنة بين سلالتي الشيوخ ان يوضح بعض الامور، خصوصا تلك التي لها صلة بالاصول. لا ريب ان الشيوخ البارزانيين حاولوا الايحاء بأن اصولهم لا تخرج من حدود المنطقة. وبين يدينا على الاقل محاولتان اريد منهما ان تعطي الانطباع بأن الشيوخ البارزانيين من اصل محلي. الاولى هي تلك الرواية الشفاهية المتواترة التي ترجع اصل شيوخ بارزان الى سلالة امراء العمادية. والثانية بيت من قصيدة للشيوخ عبدالسلام الاول اعتبر نفسه فيها زيباريا. وخلافا لهذا، لا تبدو مسألة الاصل ذات اهمية كبيرة عند السلالة السورجية. وبدون ادنى تردد او وجل، تقر السلالة السورجية ان جدها الاكبر، الشيخ عبدالله، قد جاء من كردستان الشمالية وانه استقر بين السورجيين. ان النقطة المهمة هنا هي ان السورجيين لا يرون غضاضة في ارجاع اصول مؤسسي مشيختهم الى خارج المنطقة.

وبالمقابل، ليس هناك شك في ان ارجاع اصول الشيخ عبدالله الى كردستان الشمالية لا يعطي اجوبة شافية على كثير من الاسئلة. اننا لا نعرف المكان الذي جاء منه على وجه التحديد وليس بين يدينا معلومات تساعد على معرفة ما اذا كان الشيخ عبدالله كرديا او غير كردي، كما ان مقدار معرفتنا بعقائده الدينية لا تفسح المجال لتقييم بنياته الايديولوجية بالشكل المطلوب. واذا كان هناك اجماع على انه قد جاء من كردستان الشمالية، فأن كون كردستان الشمالية محطة لكثير من الدراويش الجوالين الذين انتشروا منها الى اماكن اخرى، يثير شكوكا في اصوله الحقيقية، كما انه ليست لدينا اية معرفة بالاسباب التي دعت به يقيم سلالة دينية بين السورجيين ويستقر في شوش.

والنقطة المهمة الاخرى هي ان كلا من السلالة السورجية والسلالة البارزانية ارجعت اصولها الى الاسر الشريفة حتى تعزز شرعيتها الدينية. ويكمن الاختلاف

^{٧٦} لقاء مع خسرو شيخ مرشد شيخ بديع ضمن موضوع عن الشؤون الدينية داخل قبيلة سورجي منشور في صحيفة "ميديا" العدد ٣٢١ في ٨ كانون الثاني ٢٠٠٨، ص ٦.

بينهما في ان السلالة السورجية اعلنت نسبها الشريف بشكل مباشر، في حين ان السلالة البارزانية اعلنت عن ذلك بشكل غير مباشر. روجت السلالة السورجية لنظرية مفادها ان اصلها يرجع الى عمر بن الخطاب، ثاني الخلفاء بعد النبي محمد، الذي حكم عشر سنوات من ٦٣٤ الى ٦٤٤. ولحقة طويلة عرفت السلالة السورجية بأسم السلالة العمرية. والملفت للنظر هو ان افراد السلالة لا يثقون كثيراً بهذه النظرية ويرون، بحسب خسرو شيخ مرشد شيخ بديع، ان سلالتهم ترجع بأصولها الى السادة وبالتحديد الى الحسين بن الامام علي. ولتعزيز هذه النظرية، يزعمون ان الجد الاعلى، الشيخ عبدالله، جاء بالاصل من الحجاز واستقر في كردستان الشمالية ومنها جاء الى شوش واستقر بين السورجيين. هذا التباين في تحديد النسب لم ينشأ بالصدفة وهو يحمل على الظن بأن الشيخ عبدالله لم يكن سنياً وانه عدل عن المجاهرة بنسبه وعقائده تحت تأثير محيطه السني ووجد ان من الاصلح له ان يرجع اصل سلالته، من باب التقية، الى عمر بن الخطاب، المحبوب من جانب السنة.

مههما يكن، فإنه على الرغم من كل هذا وسواء كانت سلالة الشيوخ السورجيين تنتسب الى عمر بن الخطاب او الى الامام الحسين فهي تبدو اكثر وضوحاً من السلالة البارزانية في تحديد نسبها. ومثلما فعل الشيوخ السورجيون ومثلما كان شائعاً في تلك العصور من اعادة الانساب الى احدى البيوتات التاريخية الشريفة المعروفة لضمان وفاء الاتباع وتعزيز نظام الطاعة، ارجع الشيوخ البارزانيون نسبهم الى البيت الهاشمي الشريف بشكل غير مباشر، ذلك انهم روجوا لما مفاده ان نسبهم يعود الى امراء العمادية، وهؤلاء بدورهم ادعوا ان نسبهم يرجع الى الخلفاء العباسيين. ولما كان الخلفاء العباسيون انفسهم ينسبون الى العباس بن عبدالمطلب، عم النبي محمد، فأن سلسلة انساب الشيوخ البارزانيين تعود هي كذلك الى العباس.

وعمل كل من الشيخين عبدالله في شوش وتاج الدين في بارزان على ايجاد الفرصة لنشر عقائدهما. ويلاحظ في هذا الشأن، ان كلاهما عملاً بنفس الاسلوب. فبعد ان مكثا ردحا من الزمن، نظماً حركة توبة غايتها تطهير الاتباع من ااثمهم السابقة واعادتهم للحياة الجديدة الطاهرة. والتباين القائم هنا هو ان

حركة التوبة التي انشأها الشيخ عبدالله تبدو اكثر فعالية واشد نشاطا، في حين ان حركة التوبة التي انشأها الشيخ تاج الدين بدت بطيئة جدا ولم تتحول الى حركة مكشوفة وقوية الا في الفترة الواقعة بين ١٨٦٥ و ١٨٨٤ في عهد الشيخ عبدالسلام الاول (انظر: مفهوم الملة). ولا ريب ان كليهما يتقاسمان موهبة كسب الاتباع لكن الشيخ عبدالله يبدو اكثر نشاطا وتفوقا لأنه حقق لوحده ما حققه الشيوخ البارزانيون في اربعة اجيال.

وما لم تستطع تكية بارزان الحصول عليه بالسلام، حصلت عليه التكية السورجية بالسلام. لقد ادت جهود تكية بارزان لتعديل العلاقة بين الفلاحين وملاكي الارض الى اثاره النعرات الطبقيية ونتج عن ذلك توتر شديد بين الفلاحين وملاكي الارض، اسفر في النهاية عن انفصال جزء كبير من الزبيارين عن قبيلتهم وانضمامهم الى خندق تكية بارزان. وقد تجنبت التكية السورجية هذا المصير وآلت جهودها الى تعزيز السلام الاجتماعي داخل قبيلة سورجي. وفي الحين الذي روج فيه شيوخ بارزان لشرعنة استخدام العنف لتعديل العلاقات الاقتصادية غير المتوازنة، روج الشيوخ السورجيون للمصالحة الاجتماعية. ان الميل للسلام الاجتماعي يبدو اكثر تجذرا في عقائد التكية السورجية. وهذا واضح من السلوك العام للتكية التي عبّرت عن ذلك بما معناه ان الملك والفقير سواء بسواء، وان كلاهما لن يأخذ معه شيئا عندما يرحل عن الدنيا.

لقد ارتدت التكية السورجية رداء القادرية قبل ان تتحول الى النقشبندية في عهد الشيخ احمد (المتوفى في عام ١٨٥٣) الذي اقام اول تكية نقشبندية في قرية كولكان kolekan. وفي عهد الشيخ محمد (المتوفى في عام ١٩٠٦) تم نقل العاصمة الدينية من كولكان الى بجيل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. هكذا، فأن التحول الايديولوجي من القادرية الى النقشبندية يبدو جليا في التكية السورجية. وهذا الواضح لا يمكن رؤيته في مشيخة بارزان لأنه ليس واضحا حتى الان ما اذا كانت تكية بارزان تتبع القادرية قبل ان تتحول الى النقشبندية ام انها كانت تتبع عقائد اخرى.

ويرافق المشاكل الخاصة بتحديد اصل الشيوخ البارزانيين، مشاكل اخرى تتعلق بتحديد مدى نفوذ التكية في عهد الشيخ تاج الدين. ان معلوماتنا عن السنوات

العشر الاولى من استقرار الشيوخ تاج الدين في بارزان لا يعول عليها. ونحن لا نعرف عن هذه الفترة سوى ان الشيخ انشأ التكية وعمل على انشاء بعض الخلايا الصوفية فيها. ويرجح ان تكون التكية في عهده وفي عهد ابنه عبدالله بلا اي نفوذ تقريبا وان السلطة الفعلية للتكية قد بدأت في عهد الشيخ عبدالرحمن، الذي تأسست المشيخة على يديه. ان الفضل في تعاظم دور التكية يرتبط بمحاذنة تاريخية تركت اثرا عميقا على تاريخ المشيخة، وهي هزيمة البارزانيين في فترة غير محددة بشكل دقيق، يرجح ان تكون بين عامي ١٨٢٠ و ١٨٣٠، على يد البرواريين والتياريين (انظر: بارزان والبارزانيون).

لا يذكر التاريخ اي شيء تقريبا عن دور التكية في تلك الحرب. ويسود الاعتقاد انه حتى ذلك الوقت كانت الارستقراطية الزراعية تفرض هيمنتها على بارزان ولم يكن لشيوخ التكية اية قدرة على مواجهتها بشكل علني. في تلك الحرب جهز كل من احمد آغا زيباري و اسماعيل آغا زيباري قوة مؤلفة من ثلاثمائة وخمسين مقاتل لمحاربة عبدالرحيم بك برواري الذي شق عصا الطاعة ورفض دفع الخراج السنوي لزعمي بارزان الاقطاعيين. والحرب هنا مطبوعة بالصراع بين الارستقراطيات الزراعية. وهذا الصراع لا ينحصر بين الارستقراطية الزراعية والفلاحين فحسب بل يتعداه الى الصراع بين الارستقراطيات الزراعية القوية والارستقراطيات الزراعية الضعيفة حيث تفرض الارستقراطيات الزراعية القوية هيمنتها على الارستقراطيات الزراعية الضعيفة وتنتزع منها الخراج.

وعى برواري عدم تمكنه من الصمود امام قوة خصومه فأتبع تكتيكين في آن واحد، اذ كتب الى زعماء بارزان واعداء اياهم بدفع الخراج، وفي نفس الوقت كتب يستنجد بأشوريي جبال تيار. وقد انطلت الحيلة على الزعماء البارزانيين فسرحوا قواتهم وابقوا معهم خمسين مقاتلا فقط واتجهوا نحو البرواريين لتجديد الاتفاق. وفي المعركة التي جرت قرب قلعة قمري، ابيدت القوة البارزانية عن بكرة ابيها.

نتج عن الهزيمة الماحقة فراغ في السلطة في بارزان لأن المعركة اسفرت عن اباداة زعماء ارستقراطيتها الزراعية. وساهم الجو السايكولوجي الكئيب الذي ساد القرية بعد تلك الهزيمة في بروز التكية كعامل فعال في ملأ الفراغ. هكذا، فانه

بزوال ممثلي الارستقراطية الزراعية الاقوياء في بارزان، انفتح الباب على مصراعيه امام التكية لتكريس سلطتها. ولأن تاريخ بارزان لا يزال مجهولاً، فأنا لا نعرف ما اذا كانت بارزان شهدت قبل هزيمة قمري مرارة هزيمة اخرى في الحرب ام لا. ان ما نعرفه هو ان تلك المعركة دخلت التاريخ باعتبارها اخر معركة للبارزانيين قبل ان يتحولوا الى عقائد التكية. مهما يكن، فإن تلك الكارثة التي قضت تماماً على نفوذ الارستقراطية الزراعية في بارزان، اعطت الفرصة للشيوخ البارزانيين للعمل بحرية على تعزيز دور العقيدة وتحويلها الى قوة مادية والانتقال بسرعة اكبر من دور الستر الى دور المكاشفة.

ان الفترة من ١٨٢٠ حتى ١٨٣٠ تشكل مرحلة انعطاف في تاريخ المشيخة. ولولا هزيمة قمري، ما كان يتاح لبارزان ان تدخل التاريخ ابدًا.